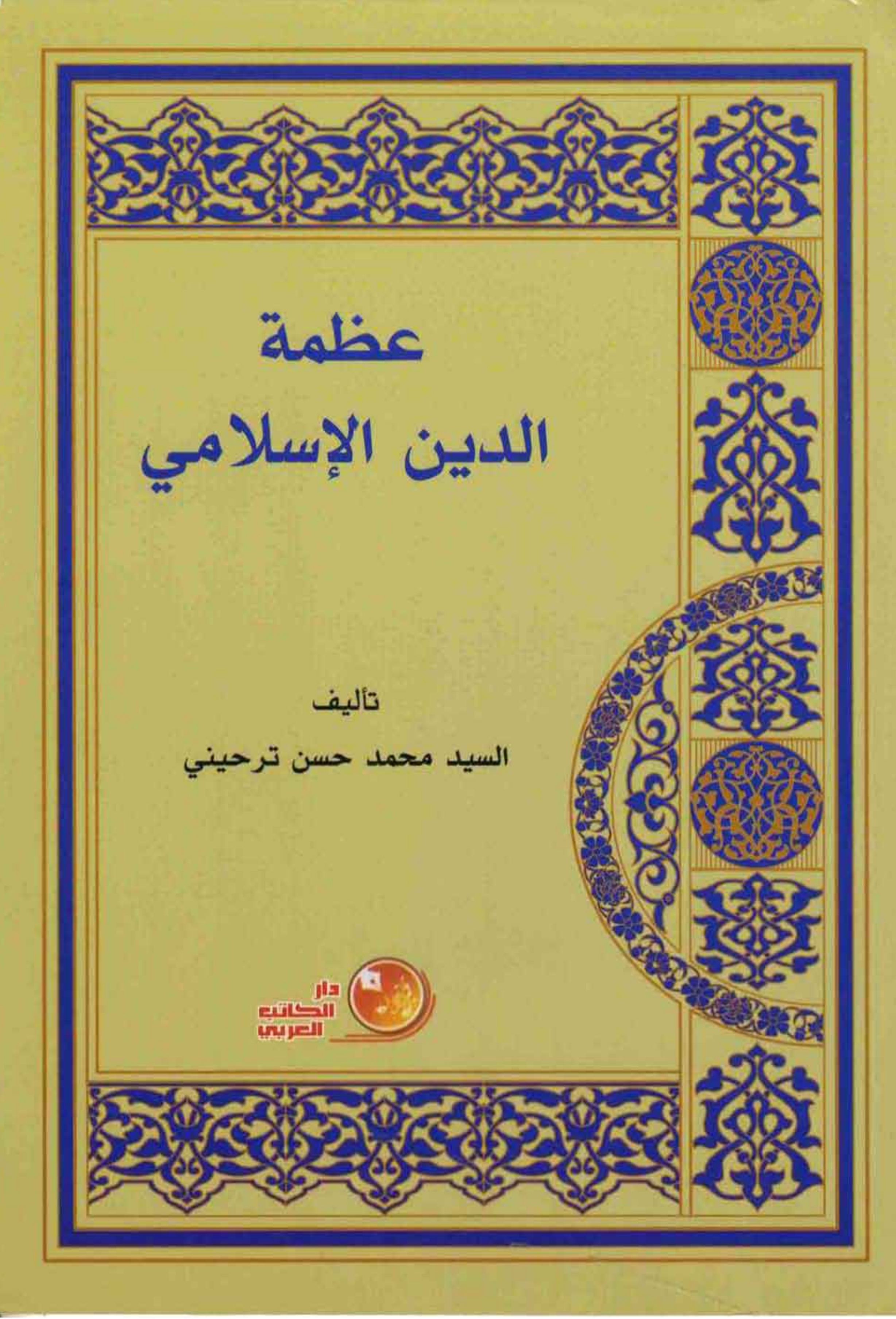

عظمة
الدين الإسلامي
تأليف
السيد محمد حسن ترحيني
دار
الكاتب
العربي

عظمة الدين الإسلامي

تأليف

السيد محمد حسن ترحيني




بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

فضل الدين

طال التصدي للأديان بقصد النيل منها وبغير قصد، واستمرأ الكثيرون التخفف من أحكامها بدعوى وبغير دعوى، وهان على البعض أن يشكك في الدين أو في بعض عقائده أو بعض شرائعه بدعوى العلم وبغير دعوى.

وحار الكثير بين هؤلاء وبين الفطرة والعقل وأدلة الدين المتينة المبنية عليهما، فصار الدين عندهم شكاً وتظنيناً مع أنه قوي الأدلة، متين الأساس، متكامل الأجزاء.

ومن أراد النظر في الدين فلا بدَّ أن يكون غزيرَ المعرفة، متّسعَ الأُفق، عميقَ البحث، سليمَ المنطق، متنزّهاً عن الهوى، منْصفاً في النّتائج.

وعليه فهل للدّين حقيقة قائمة ليكون البحث عنه ضرورياً لازماً، وعلى فرض الضرورة للبحث فلا يكفي أن يُبحث عن الدين في عصرٍ ما، بل لا بدَّ من البحث عنه في كل عصر، لاتّساع الآفاق الفكرية وبروز التّعدد في مصادر المعرفة، ونشوء الإشكالات الكثيرة، مع الالتفات إلى أنه ما يصلح لعصرٍ في عرض الفكرة قد لا يصلح لغيره من ناحية الأسلوب ومن ناحية العرض ومن ناحية العمق.

فلا بدَّ من البحث في كل عصرٍ عن الدين بلغة عصر البحث وفكره.

وعندما وصل العقل البشري إلى أعلى مستواه فلا بد من البحث عن عظمة الدين خصوصاً الدين الإسلامي.

* * *

معنى الدين

١

الدين: هو الإيمان بإلٰهٍ جديرٍ بالطاعة والعبادة.

والأديان السماوية واحدة في أصولها العقائدية وإن اختلفت شرائعها باختلاف أزمنتها، وهذا ما بيّنه القرآن وأكّده بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ **[الشورى: ١٣]**.

فجميع الشرائع النازلة على الأنبياء عليهم السلام المذكورين في الآية راجعةٌ إلى دينٍ واحد.

٢

فالدّين هو الطريق الإلٰهي العام، والشريعة هي الطريقة التشريعية لأمّةٍ من الأمم، ولذا قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ **[المائدة: ٤٨]**، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ **[الجاثية: ١٨]**، والذي يقبل النسخ هو الشريعة دون الدين.

٣

لذا اتفقت الأديان السماوية على أمورٍ منها:

أ - الدعوة إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ب - الدعوة إلى عبادة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ج - إنذار يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

د - الأمر بالتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣٠].

٤

هذا الدين الواحد أُطلق عليه لفظ (الإسلام) في القرآن بمعنى التسليم، قال تعالى حكاية عن إبراهيم وبنيه عليهم السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣١ - ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال عن نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وقال عن الحواريين: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وقال عن نبيه الأعظم ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

٥

نعم خُصَّ لفظ (الإسلام) بالدين النازل على قلب النبي الأعظم ﷺ، لأنه جامعٌ للأديان السابقة وشرائعها، ولذا كان أكملَها وخاتمها، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

* * *

الباب الأول

الحاجة إلى الدين

الحاجة إلى الدين

١

الحاجة إلى الدين هي حاجة أساسية تتصل بسر الوجود وغايته، وبجوهر الحياة وأعماق النفس البشرية ودور الإنسان، فلذا كان العقل والنفْس محتاجَين إلى الدّين.

٢

حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى في الوجود تستدعي حاجته إلى الدين، لأن كل إنسانٍ تلّح عليه أسئلة (من أين أتى، ولِمَ أتى، وإلى أين سيذهب).

فمن الذي أسبع على الأنسان نعمة الوجود؟ ومن أسبغ الوجود على هذا الكون الفسيح المؤلف من السماء والأرض وما فيهما وما بينهما؟

ولماذا وُجد الإنسان؟ ولِمَ أُعطي العقل والإرادة والتمييز عن بقية الموجودات؟ ولِمَ سُخّر له ما في السموات وما في الأرض، أله مهمة في حياته ودور؟ وهل هناك غايةٌ من وجوده؟

وإلى أين المسير بعد مرحلته الدنيوية؟ أهي مرحلة (الطبع المحيي والدهر المفني)، وقال عنهم تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

أو هي مرحلة ('الأرحام تدفع والأرض تبلع)، ولا شيء بعد ذلك.

فالدين هو الذي يجيب عن هذه الأسئلة. فالإنسان لم يخرج من العدم بنفسه، ولم يخرج صدفة، وإنما هو مخلوق لخالق عظيم، هو ربُّه الذي خلقه فسوَّاه فعدله، ونفخ فيه من روحه.

وكذا الكون فهو مخلوق مثله، إلا أنه نعمة من الله للإنسان ورحمة، وبهذه العقيدة يرتبط الإنسان بخالقه، ويرتبط بهذا الوجود الكبير للكون.

والدين هو الذي يعرّف الإنسان مرحلته بعد الموت، وأن الموت ليس فناءً محضاً، ولا عدماً صِرفاً، وإنما هو انتقال من مرحلة وجودية دنيا إلى مرحلة وجودية عُليا، وهي الحياة البرزخية، وتتلوها الحياة في يوم القيامة.

وبهذه العقيدة يعيش الإنسانُ الخلودَ بوجدانه، ويعلم أنه خُلق للأبد، وأنه انتقل بالموت من دارٍ إلى أخرى.

والدين هو الذي يُعرّف الإنسان عن غاية خلقه، وعن سبب تكريمه وتفضيله، فخُلق ليكون خليفةَ الله في الأرض.

وبهذه العقيدة يُدرك الإنسانُ سرَّ وجوده، ويستبين دوره ومهمته في هذه الحياة.

وعليه فالإنسان ـ الذي طرأت عليه الأسئلة المتقدمة: (من أين؟ ولِمَ؟ وإلى أين؟) ولم تفرض عليه البحث عقلاً عن الأجوبة ـ يعيش كمخلوق حيواني لم يدرك معنى وجوده ولا معنى الوجود الذي حوله.

وإذا طرأت عليه الأسئلة المتقدمة ولم يصل إلى الجواب الشافي فيعيش في حالة شكٍ وحَيرة، والشكُّ (في حقيقة نفسه وفي سر وجوده وفي غاية خلقه) مما يجعل الحياة عليه قاسية ومضطربة.

٣

والنفس في إشباع تطلعاتها، وفي استبانة طريق كمالها، وفي حاجتها لبناء المجتمع وإعمار الدنيا تحتاج إلى الدين.

فالإنسان ليس عقلاً صرفاً، بل العقل من وظائف النفس، والنفسُ مفطورة على التعلق بخالقها، تتطلع إليه عند الشدائد، وتتشوّف للتعبّد بين يديه وللتخضّع أمامه.

ولذا تجد هذا التعلّق عند كلّ الأمم البدائية والمتحضّرة، وفي كل العصور الحديثة والقديمة.

وإذا سُبِر الحاضر والماضي فقد نجد مدناً بلا حصون، ومدناً بلا قصور، ومدناً بلا مدارس، ولا نجد مدناً بلا معابد، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠]، والدين هو الذي يرسم للنفس الطريق لترجع إلى الله عند الشدائد، وتهتدي إلى كيفية التخضع بين يديه.

لأن اللّه جلّ جلاله لما قضت حكمته إيجاد النوع الإنساني وأن

يكون خليفة له في الأرض، فالدور الاستخلافي يتم بتكميل النفس وإقامة المجتمع وإعمار الدنيا.

ولا يتحققَ هذا الدور على يد الإنسان إلا إذا تمّ وعيَه للوجود وللموجود، مع أن مساحة إدراك العقل محدودة فهو بحاجة إلى قائد يرفده فكان الدين السماوي.

وكذا لا يتحقق مسك قوى النفس على يد الإنسان الذي أودع فيه من غرائز وسجايا وطبائع من جملتها الغضب والشهوة، وما يتشعب منها من حرص وطمعٍ وطموح وتعالٍ ونحو ذلك، فلا يتحقق مسك قوى النفس برادعية العقل، لأنها ضعيفة، فهو بحاجة إلى رادعٍ يعينه فكان الدين، وهذا حاجة النفس إلى الدين السماوي.

٤

فالتفكير العقلي والعقيدة الدينية التي تحملها النفس هما اللذان يقودان الإنسان، لأنه لا يُقاد إلا بعقيدة وفكر، فإن صلُحا صلُح فيه كل شيء، وإن فسدا فسد فيه كل شيء.

وعليه فقيام مدينة بلا أرض تقوم عليها أسهل من تكميل النفس وإقامة المجتمع وإعمار الدنيا بدون فكرة وعقيدة صحيحتين.

* * *

العلم لا يغني عن الدين

العلم له مجاله وللدين مجاله.

فالعلم يشمل معرفة المادة وخواصِها، ويشمل تيسير أسباب المعيشة على الإنسان فيمنحه الوسائل والأدوات.

أما الدين فيشمل معرفةَ الخالق، ومعرفةَ الوجود والكون، ومعرفةَ الإنسانِ والغاياتِ والأهدافِ الكونية والإنسانية، ومعرفةَ الوسائل والسُبُل للوصول إلى هذه الغايات والأهداف.

ولذا فالعلم في مجاله قد تقدم في الجانب المادي للإنسان إلى حدٍ كبير، ولكنه أضعف الجانب الروحي فيه إلى أدنى مستوى.

فأعطى العلمُ الإنسانَ جناحي طائر فحلَّق في الفضاء وأعطاه خياشيم حوتٍ فغاصى في أعماق المياه، ولكنه لم يعطه قلب الإنسان.

وحين يعيش الإنسان بغير قلب تتحول أدوات العلم في يديه إلى مخالب وأنياب تقتل وترهب، وإلى معاول وألغام تحطم وتنسف وتدمر، وتتحول أدوات العلم وما اكتشفه إلى أسلحة ذرية، وقنابل مدمرة، وغازات سامة، وأسلحة كيمياوية وجرثومية تنشر الموت والخراب حين استعمالها، وتشيع الذعر والخوف قبل الاستعمال.

والعلم أعطى الوسائل والأدوات فوضع الإنسان قدمه على سطح القمر، ولكنه لم يملك العلم أن يضع يد الإنسان على سر وجوده وغاية حياته.

والعلم أعطى الوسائل والأدوات فانتصر الإنسان بها على قوى الطبيعة، ولم يستطع أن يعطيه ما ينتصر به على نفسه، وعلى شهواته وشكه وقلقه وخوفه وتخبطه وصراعه الداخلي.

والعلم يسَّر للإنسان أسباب المعيشة الظاهرة من أكل وشرب ومسكن وانتقال ونحو ذلك، وعجز عن إصلاح باطن الإنسان فلم يستطع العلم أن ينفذ إلى تلك (اللطيفة الربانية) وهي النفس المدركة الواعية الشاعرة الحساسة، التي إن صَلُحت صلح الإنسان، وإن فسدت فسد الإنسان.

واستطاع العلم أن يُعالج الكثير من الأمراض البدنية، ولكنه فشل في إشباع النفس في تطلعاتها العبودية، وفشل في تغذية النفس من شعور وإحساس وإرادة، فكثرت الكراهية والحقد والخوف واليأس والحيرة والشك.

واستطاع العلم أن يوصل الإنسان إلى القمر، وجلب معه بعض الأتربة والصخور، ولم يجد هناك ما يخرجه من التعاسة والقلق والضياع في كوكبه، ولا يخرجه إلا تعاليم مَنْ خلقه فسواه، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ولم يستطع العلم أن يمنح الأهداف والغايات الكونية والإنسانية، وما أتعس الإنسان إذا تكدّس لديه العلم بالنواميس

وتكدّست عنده الوسائل، ولا يعرف لنفسه هدفاً ولا لحياته قيمة، إلا أهداف السباع في العدوان، وأهداف البهائم في الأكل والسفاد.

أما هدفٌ يليق بمواهب الإنسان وبخصائصه وبكرامته وبدوره فلا يقدّمه إلا الدين.

* * *

الفلسفة العامة لا تغني عن الدين

١

قد يقال: إن الفلسفة العامة بديل عن الدين.

فيقال: الدين له فلسفته، لأن الفلسفة العامة نتاج عقول بشرية، والدين وضع عقائدي وتشريعي من الخالق لمن خلقه.

فالفلسفة العامة وإن اهتمت بالإنسان وحاولت أن تفسر الوجود، وتجيب عن أسئلة: (من أين؟ ولِمَ؟ وإلى أين؟).

إلا أنها لم تتفق على رأي واحدٍ، لأن الفلسفة العامة ساحةُ تفكيرٍ للعقلاء، تتسع للرأي وضدّه، وللفكرة ونقيضها، فتندرج تحت الفلسفة العامة: الفلسفة المثالية والفلسفة الواقعية، وفلسفة الواجب وفلسفة المنفعة واللذة، والفلسفة المادية.

٢

هذا والفلسفة العامة إذا أصابت فتقدم فكرة هادئة باردة، بخلاف الدين فيقدم قوة دافعة فعّالة خلّاقة لا يقف في سبيلها شيء في

الكون، فالفلسفة العامة تعطي الفكرة فتودع في الحافظة، والدين يُصلح نفساً بإطلاق قواها نحو الصلاح والإصلاح، فلذا كانت المعرفة هي غاية الفلسفة العامة، وكان الإيمان هو غاية الدين.

٣

وغاية الفلسفة العامة نظرية حتى في قسمها العملي، وغاية الدين عملية حتى في قسمها النظري.

فأقصى مطالب الفلسفة لصوقاً بالإنسان أن يعرف الحق والخير، ما هما؟ وأين هما، ولا يعني الفلسفة العامة الموقفَ الإنساني منهما.

أما الدين فيعرّفنا الحق والخير لا لنعرفهما فحسب، بل لنؤمن بهما ونجسّدهما، ويعرّفنا الواجب لنؤدّيه ونكمل نفوسنا بتحقيقه.

٤

والفلسفة العامة لا يتحملها إلا طبقةٌ خاصة من الناس، أما الدين فهو يسعى بطبيعته لأن يتحمله كل الناس.

٥

والفلسفة العامة تقدّم الفكرة ولا تدعو إلى الإيمان بها، فلذا تجنح الفلسفة العامة إلى العزلة، والدين يقدم الفكرة ويدعو إلى الإيمان بها، فلذا تجده بين الجميع.

وعليه فإذا رأيت فيلسوفاً يدعو إلى مذهبه فقد تغير وضعه وتحولت فكرته إلى إيمان.

وإذا رأيت مؤمناً لا يهتم إلا بنفسه فقد استحالت نار إيمانه إلى رماد.

* * *

الباب الثاني

الفلسفة الإسلامية

مقدمتان قبل البحث

المقدمة الأولى: المنطق والبرهان أو الجدل والإقناع

المنطق بحث عن الحقيقة عن طريق النظر السليم والتمييز الصحيح، وهو المسمى بالبرهان، وحكم الإسلام واضحٌ فيه من دون لَبْس، لأن القرآن الكريم صريحٌ في مطالبة الإنسان بالنظر والتمييز، وصريح في محاسبته على تعطيل عقله وضلال تفكيره.

وأما الجدل فهو بحثٌ عن الغلبةِ والإلزام بالحجة، قد تكون الغلبة والإلزام بالحجة للدفاع عن مصلحة مطلوبة، وقد تكون من أجل الفوز نفسِه ومن أجل إفحام الخصم في مجال المناقضة، وهذا ينساق إليه الإنسان بدافع المغالبة.

وعلى كلٍ فما أُريدَ من الجدل للدفاع عن الحق من دون مغالطة أو مكابرة أو من دون قلب الحقائق فهو أمر حسن.

وما أريد من الجدل للدفاع عن الباطل، أو لإثبات الغلبة فهو أمر مذموم، ويتبعه التمادي في الملاحاة والبغضاء، وهو قائم على المغالطة لا المصارحة، ويصرّ صاحبه على المكابرة المجهِّلة للحقيقة.

وآفّة الجدل المذموم ثلاث: **الأولى**: إغراء الناس بالمماحكة بالقشور دون الجواهر واللباب من حقائق الأمور، **الثانية**: إثارة البغضاء والشحناء ولعاً بالغلبة، والاستعلاء بدعوى العلم والصواب،

الثالثة: إشاعة الخلاف بين الآراء جماعة بعد جماعة إلى غير نهاية يقف عندها ذلك الخلاف، فتنقسم الأمة إلى شِيع، والشيعة الواحدة إلى فِرق، والفرقة الواحدة إلى شعب وفروع، حتى لا تبقى فئة واحدة على رأي واحد، وكلما ازداد الخلاف قل عديد أهل كل فرقة، وصغُر منزلة التفكير عندهم.

ولذا ما من أمة فُتح فيها باب الجدل المذموم ثم سلمت من طول اللجاجة وسوء العاقبة وقلة الجدوى لطلاب الحقيقة، ولطلاب إنشاد الصلاح والإصلاح، وانشغلوا بالشقاق والشتات عن مهام الدنيا ومطالب الدين.

فتتبلبل الأذهان وتفسد القلوب ويصل الأمر - أمر تقرير الحقائق - إلى أهل الفضول والبطالة الذين يهرفون بما لا يعرفون، وهؤلاء يوبقون معهم طوائف الأبرياء من أهل الجد والاستقامة الذين لا طاقة لهم بالجدل ولا بالبحث الفكري، وأسوأ منهم من يعرف ويسيىء النية عمداً لإزعاج سلامة الإيمان في النفوس.

وأسلم المواقف عند شيوع الجدل المذموم واحتدام الخصام وشيوع المراء والاتهام أن يُصاب المرء ولا يصيب، وأن يتجنب الخصومة، أو يتجنب فيها كل قولٍ مريب، لأن الجدل المذموم يصرف العقل عن الفهم، وتُحجب عنه الحقيقة، ويأتي العقل إلى المعنى الواضح فيصير غامضاً، وبالجدل لا يستطيع العقل أن يجلو الغامض، فالابتعاد عنه إنقاذ للعقل من الضلالة، وإعاذة له من الخبط في النهار خبط العشواء في الليل.

وعلى كلٍ فالفلسفة لا تعرف الجدال وإنما تعتمد على البرهان والدليل.

* * *

المقدمة الثانية: درجات التفكير

هناك ثلاث درجات للتفكير.

الأولى: ما يُسمى بالثقافة، وهي مجموع معلوماتٍ من أودية شتى بدون ترابط بينها، والغالب فيها تحمُّلها من دون الدليل على صحتها.

الثانية: ما يُسمى بالعلم، وهو مجموع معلوماتٍ مترابطةٍ وكاشفةٍ عن موضوع واحدٍ من موضوعات الوجود أو الكون أو الحياة أو الإنسان أو السلوك البشري، مع إقامة الدليل على صحة كل معلومة جزئية.

الثالثة: ما يُسمى بالفكر، وهو النظر إلى الموجودات لمعرفة القاسم المشترك بينها، ومعرفة أساس هذا القاسم وغايته، لاستكشاف كنه الوجود ومعرفة سره وحقيقته.

وعليه فالفيلسوف هو من كانت له ملكة عقلية تعطيه القدرة في بحث المسائل من جهة التجريد، أي: تجريد الموجودات من ماهيتها ولوازم الزمان والمكان ونحو ذلك.

هذا التفكير الفلسفي التجريدي هو الذي يعطي وعياً عن الوجود والموجود، غايته أن هذا الوعي تارة وعيُ إحاطة إدراك، وأخرى وعي إحاطة سبرٍ وفهمٍ لحقيقة الموجود ولدوره.

وكلما تعمم هذا الوعي بشقيه أو بأحدهما لبقية الموجودات كلما ازداد الوعي البشري وتعمّق.

وكلما تعمق الوعي البشري يصير الإنسان أقدر على التعبير عما وصل إليه، لأنه أكثر إدراكاً لوجوده، وأكثر استشعاراً في قوته، وأكثر استقلالية في إعمال قدرته.

والذي يرفع الناس إلى أي درجة من هذه الدرجات التفكيرية هو تفاوت قوى نفوسها، واختلاف توجهاتها.

ومع هذا التفاوت في القوى والاختلاف في التوجهات تتفاوت الناس من ناحية القدرة على ملاحظة دقة المعاني وخفائها ولطافتها، ومن ناحية القدرة على اختيار الأساليب والطرق المعينة للوصول إلى إدراك الموجود.

نعم يشترك الجميع للوصول إلى الموجود والعلم به مع القطع بصحته في التدرج عبر ثلاث مراحل:

الأولى: معرفة المعلوم بألفاظه المكتوبة، إذا كان مأخوذاً من كتاب، أو إذا كان تفكيره بالمعلوم من خلال لفظه.

الثانية: معرفة معنى المعلوم بعد تجريده من لفظه.

الثالثة: معرفة واقع المعلوم وحقيقته الوجودية.

وحينئذٍ فإن قايس المعنى للواقع ملك الدليل على صحة المعلوم أو الدليل على عدم الصحة، فالتطابق بين المعنى والواقع هو الدليل على الصحة، وعدم التطابق هو الدليل على عدم الصحة مع معرفة حدود البطلان سعةً وضيقاً.

وعليه فقد يصل الإنسان إلى المعاني ويكتفي بها ولا يعبر منها

إلى الحقائق فيكون قد سبر شوطاً في المعرفة إلا أنه شوط ناقص، لأنه كما عبر من الألفاظ إلى المعاني فلا بد من العبور من المعاني إلى الحقائق، والكثير من الخلاف قائم بين من يقف عند المعاني وبين من عبرها إلى حقائقها.

* * *

الحاجة إلى ما يقدمه الدين من فلسفة

الدين هو ترجمان الصلة بين الله والإنسان والكون، وإذا كان الدين يبدأ من الإيمان بالله جل وعلا فالفلسفة تبدأ من الإيمان بالإنسان، لأن الإنسان هو الذي سيحمل الفلسفة التي تفسر له العلاقة الوجودية بين الله والإنسان والكون.

ولا بدّ أن تبدأ الفلسفة من الإنسان، لأن وجود الإنسان لدى نفسه وذاته لا يحتاج إلى برهان، ومن هنا يبدأ البحث والتفكير ثم ينتقل إلى الكون فيدركه بحواسه الظاهرة والباطنة، ثم ينتقل إلى الغيب حتى الوصول إلى الله جل وعلا، فيدركه بالفطرة النفسية وبالبداهة العقلية.

حاول الإنسان إيجاد فلسفة خاصة به، وقدم فلسفات متعددة، وأصاب في قسمٍ منها، إلا أن بني النوع الإنساني لم يتفقوا على فلسفة واحدة، ولو اتفقوا فلا يستطيعون أن يقدموا فلسفة متكاملة تفسر العلاقة الوجودية السابقة.

فقد كان الإنسان بحاجة إلى الدين لتكتمل عنده الرؤية الفلسفية، ويكون عند بني النوع الإنساني فلسفة واحدة، لأنه من غير المعقول أن يقدّم الدينُ وضعاً عقائدياً وتشريعياً لبيان دور الإنسان الذي من أجله خلقه الله، ولا يقدم له رؤية فلسفية وجودية تساعده على إنجاز

هذا الدور، وتعرفه أن هذا الدور الإنساني هو ثمرة الوجود وهو الهدف الذي من أجله خلق الله الكون.

لذا لا بدّ للدين من فلسفته الخاصة، ولكن باعتبار أن تحمّل هذه الفلسفة بحاجة إلى درجة عالية من التفكير فلذا لم يُلزم الدين الجميع بها، بل ألزم من وصل إليها وترك الباب مفتوحاً أمام الآخرين، فالدين لا يطلب موافقة كل عقلٍ، وحسبها سماحة أن الدين لا يصدّ عن إعمال العقل، بل حث على إعماله، ما لم يكن من آراء العقل ما فيه موبقة في العقيدة أو في الشريعة أو على سلامة الجماعة الإسلامية، أو الإنسانية.

* * *

فلسفة الدين الإسلامي

كل فلسفة لا بدّ لها من أسس، كما لا بد من غاية تترتب عليها.

فأسس كل فلسفة هي مصادر المعرفة التي تستمد هذه الفلسفة منها دورة التفكير.

وغاية كل فلسفة هي الرؤية الوجودية التي يتسلّح بها الإنسان، وينظر بها إلى العلاقة بين الله والإنسان والكون.

ففلسفة الدين الإسلامي لها أسس كما يترتب عليها الغاية.

* * *

مصادر الفلسفة الإسلامية

العقلية الفكرية التي يكوّنها الدين تستمد معارفها من أربعة مصادر:

الأول: الحواس.

الثاني: العقل.

الثالث: القلب، الذي هو نافذة النفس على البدن، وهو مصدر للمعرفة الفطرية، والمعرفة الإلهامية، والمعرفة المتجسدة في المنامات.

الرابع: الوحي السماوي.

أما الحواس فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [**النحل**: ٧٨].

وذَكَر السمع والبصر فقط، لأنهما أكثر الحواس استعمالاً للإدراك.

وأما العقل فالآيات الدالة على التعقل والتدبر والتفكر كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [**آل عمران**: ١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [لأعراف: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وأما القلب فمعارفه من الفطرة والإلهام والمنام، أما الفطرة فقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وأما الإلهام فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

وأما المنام فقال تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وهناك آيات أخرى.

وأما الوحي السماوي فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

* * *

غاية الفلسفة الإسلامية

يستفاد من مصادر الفلسفة الإسلامية أن الإنسان هو المحور الغائي للكون، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

ويستفاد منها أن الإنسان موكول إليه دور خلافة الله جل وعلا في هذا الكون، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وأن وظائف الاستخلاف الإلهي هي: أن يكون عابداً لربه وعبداً له، حكيماً في نفسه، خلوقاً مع بني نوعه، متعاوناً مع بني جنسه في إقامة المجتمع الإنساني وفي إعمار الدنيا.

* * *

الفوارق بين الفلسفة الإسلامية
وبين الفلسفة العامة

الفلسفة الإسلامية تختلف عن الفلسفة العامة بأمور هي:

الأول: الفلسفة العامة تقتصر في فهم الوجود والموجود على الغاية المترتبة عليهما.

بخلاف الفلسفة الإسلامية فتفهم الوجود والموجود وتربط غايتهما بغاية الإنسان وفي كيفية استخدام غايتهما في إنجاز الدور الاستخلافي للإنسان.

الثاني: الفلسفة العامة تقتصر في أسس المعرفة على الحواس والعقل، بل على العقل فقط، لأن إدراك الحواس محكوم بالعقل.

بخلاف الفلسفة الإسلامية فتعتمد على العقل حتى يذهب الفكر إلى غاية أشواطه، وتعتمد على حدود الإلهام الذي له الدخل في السير السلوكي الإنساني، وتعتمد على الوحي المتجسد في القرآن وما صدر عن المعصوم عليه السلام من نبيٍ أو وصيٍ عليه السلام.

الثالث: الفلسفة العامة تبدأ من التفكير بالوجود بخلاف الفلسفة الإسلامية فإنها تبدأ من النفس التي هي حقيقة الإنسان، وما العقل ودورته التفكيرية إلا من أعمال النفس.

وعليه فالابتداء من النفس للوصول إلى غاية وجود الإنسان يوجب التوجه إلى خالقه وإلى ذاته.

فيعي ذاته ونفسَه وقدراتهِ ومصيرَه في الحياة والآخرة، فيرى نفسَه عبداً مكلّفاً بالتكامل والطاعة والعبادة وبالعمل في كل مجالات الإنسان مما له الدخل في إنجاز دوره الاستخلافي.

ويرى نفسه أكثر لصوقاًولياذاً بالله جلّ وعلا لأنه يعي خالقه من وجودٍ وصفات، ويعي بأن له حقوقاً وواجبات، ويكون همّه الاستهداء بصفات الله جل وعلا، فما كانت صفاته وأفعاله أكثر تجسيداً للصفات والأفعال الألوهية فيكون أكثر تعرضاً للهدى وللإلهام، ويكون على طريق الكمال، وبهذا الفكر الفلسفي يرتفع إلى الهَدْي المقصدي للإنسان.

ولأنه يستهدي بالصفات والأفعال الإلٰهية سُمّيت الفلسفة الإسلامية بالفلسفة الإلٰهية، ولأنها تستمدّ بعض معارفها من الإلهام سُمّيت بالفلسفة الإشراقية، أي: ما يشرق على القلب من معارف سلوكية.

بخلاف الفلسفة العامة التي تبدأ من التفكير بالوجود فإنها تعطي فكرة عقلية باردة محلها حافظة الذهن، فلا تُصلح نفساً ولا تُطلق قواها، ولا تعطي إيماناً ولا ديناً.

وبهذه الفوارق تختلف الفلسفة الإسلامية عن الفلسفة العامة، بل تختلف عنها كلياً، فدعوى أن المسلمين لم يأتوا بشيء جديد في علم الفلسفة، بل حملوا الفلسفة اليونانية بعد الترجمة فحملوها إلى غيرهم من دون زيادة ليس في محله.

وممّا تقدم تعرف انتفاء الفوارق السابقة التي كانت بين الدين والفلسفة العامة.

لأن الفلسفة الإسلامية ليست نتاجاً عقلياً بحتاً بل هي نتاج ثمرة تكامل العقل مع الوحي والإلهام لإنجاز الدور الاستخلافي، وهو عين ثمرة تطبيق الدين، وبه يرتفع الفارق الأول.

والفلسفة الإسلامية تعطي بالإضافة إلى وضع عقائدي إصلاحاً للنفس وإطلاقاً لقواها، وتعطي المعرفة والإيمان، وبه يرتفع الفارق الثاني.

والفلسفة الإسلامية هي عملية، وإن كانت تعطي وضعاً عقائدياً، لأنها تُصلح أمر النفس، وبه يرتفع الفارق الثالث.

والفلسفة الإسلامية يتحمّلها كل واحدٍ بحسب طاقاته، وبه يرتفع الفارق الرابع.

والفلسفة الإسلامية تقدم الفكرة الوجودية وتدعو إلى الإيمان بها، وبه يرتفع الفارق الخامس.

قد يقال: إن غاية الإنسان حتى نجسّدها في السلوك هو من طبيعة التصوف والعرفان، وطبيعة التصوّف والعرفان لا تتلاقى مع طبيعة الفلسفة، فالتصوف عملي والفلسفة نظريةٌ تجريدية.

فيقال: هذا يصح إذا أريد من التصوف رياضة الأخلاق وتهذيب السلوك، ولكن إذا كان هذان الأمران نتيجة البحث في معضلات الوجود والموجود ودور الإنسان مع قدرة نفسية على التغلب على الذاتية والأنانية، والتغلب على المألوفات التي تحيط النفس وتشغلها عن دورها الأساسي فهو مجال الفلسفة الإسلامية.

فالفيلسوف الإلٰهي الذي عنده القدرة على التجريد الذهني هو أقدر من مطلق المتصوف الذي لا يشغل فكره باستقصاء البحث التجريدي.

والفيلسوف الإلٰهي الذي عنده القدرة على التحكم بالنفس وجعل وجهتها نحو خالقها بدل أن يكون جهتها البدن وعلاقاته وحاجاته الدنيوية هو أقدر من الفيلسوف العادي الذي تتحكم فيه الذاتية والأنانية وشواغل الدنيا وعلاقات البدن.

وعليه فالتفكير المنتظِم عند الفيلسوف الإلٰهي هو أداة تعينه على الفهم حيث يقنع المتصوف بالتسليم ويستريح إليه.

والتوجه النفسي عند الفيلسوف الإلٰهي أداة تميزه عن الفيلسوف العادي الفاقد لهذا التوجه.

* * *

الباب الثالث

العقيدة الإسلامية

كيف يختار الإنسانُ دينه

من العسير على الكثير من المتديّنين المؤمنين أن يذكروا أسباباً عقلية لتفضيلهم الدينَ الذي يعتقدونه على سائر الأديان التي لا يعتقدونها.

وغاية ما عندهم من التعليل لهذا التفضيل أن يؤمنوا بهذه العقيدة، لأنها عقيدة نبيّهم مع عدم إيمانهم بالأنبياء الآخرين، ولا يملكون دليلاً على عدم الإيمان بهم.

والمسلم له عصمة من عقيدته تحميه من ذلك العجز الذي يعيب العقل ويعيب العقيدة معاً، لأنه يؤمن بجميع الأنبياء الذين سبقوا النبي الأعظم ﷺ، ويؤمنون بجميع رسالاتهم وأديانهم.

قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

ومع الإيمان برسالات جميع الأنبياء ينفتح أمامَه بابُ التفكير والاحتكام إلى العقل بالأفضل منها من ناحية قداسة السيرة وعظمة الأثر وكثرة المهتدين.

كما ينفتح أمامه بابُ التفكير والاحتكام إلى العقل بالأفضل

والتمييز بين الرسالات بما لها من حجة ودليل في عقيدتها وفي شريعتها، وبما فيها من عموم الهداية.

فالمسلم يفضل الإسلام على سائر الأديان ليس لأنه دينُه فقط وكفى، بل لأنه يملك الدليل والحجة في العقيدة والشريعة، وفي عموم الهداية، فضلاً عن قداسة السيرة وعظمة الأثر وكثرة المهتدين لا المنتسبين.

وسنقتصر على الدليل والحجة في العقيدة والشريعة بتفضيل الإسلام على بقية الأديان، وأما بقية موازين التفضيل فيُبحث فيها عند البحث في موضوعات هي ألصق بها من هذا الموضوع، مع أن الدليل والحجة على التفضيل في العقيدة والشريعة كافٍ عن إقامة الدليل والحجة على التفضيل في بقية الموضوعات.

* * *

قياس التفاضل بين الأديان

١

هناك تفاضل بين الأديان بمقدار ارتقاء عقائدها في آفاق العقل، وبمقدار ارتقاء شعائرها في مناحي الروح، وبمقدار وضوح الحقائق، وبمقدار شمول العقيدة الدينية.

وهذه الأمور الأربعة قد اجتمعت في الدين الإسلامي ولم تجتمع في غيره فلذا كان القوة الغالبة عند بروزه، فآمنت به أمم وشعوب، بدويةً وحضارية، صاحبةَ أديان سابقة أو وثنية.

وهذه الأمور الأربعة جعلت الإسلامَ القوة الغالبة لأنه يجذب النفس ويحفظ الروح ويُقنع العقل ويُريح الضمير، فيحفظ الفرد ويجمع إليه البقية في تأليف المجتمع والأمة، ويحفظ للجميع قوة الإيمان.

وهذه الأمور الأربعة جعلت الإسلام القوةَ الصامدة أمام تدايل الدول وتبدل المقادير.

وعندما صار المسلمون على هامش الحضارة والمدنية فكان القوة المدافعة عن المسلمين وإن تركوا شريعته.

٢

إذا امتاز الدين الإسلامي على بقية الأديان بهذه الأمور الأربعة فشمول عقيدته هي أبرز هذه الأمور، فلذا كانت عقيدة المسلم لا تتوقف على غير عقل المسلم، وكانت عقيدته لا تبقي وراء سره وجهره جزءاً إلا وتتخلل فيه لتكون جزءاً من كيانه، ولا ينقسم المسلم بسبب عقيدته إلى قسمين بين الدنيا والآخرة، أو بين البدن والنفس، وكما خاطبت العقيدة الإسلامية النفس البشرية من عقل ونفس فكذلك خاطبت الأمم الإنسانية جمعاء، فلم تكن عقيدةً لأمة واحدة ولا لطبقة واحدة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فالعقيدة خاطبت الإنسانية لتجعلها أسرة واحدة على تعدد أبنائها وتعدد شعوبها وقبائلها، واختلاف لغاتها وألوانها، وفي هذا التعدد حكمةٌ بالغةٌ تجعله من أقوى الأسباب لإحكام صلة التعارف بينهم، ومن أقوى الأسباب لتنوع المساعي والأساليب للكشف عن أسرار الكون ولاستنباط الطرق والوسائل لاستخدام أسرار الكون وقوته عبر هذه الطرق والوسائل في حياة الإنسان، بما ينجم عنه تعدد المدنيات، وينتج عنه امتداد واستمرار الحضارة بين الشعوب مع ازدياد في العلوم والصناعات والفنون.

٣

العقيدة الإسلامية لم تكن بوضع مجمعٍ بشري، بل كانت مطابقة لقوس التطلع النفسي ولقوس التفكير العقلي، فالفطرة وبديهيات العقل هما الدليلان على صحة هذه العقيدة.

وهذه العقيدة هي التي تعطي الرؤية الوجودية التي تربط الإنسان بالخالق وبالكون، وهي التي تفسر حياة الإنسان وتنظمها، فهي طريقة حياة قبل أن تكون طريقة فكرٍ أو منهج دراسة أو استدلال.

وهذه العقيدة المطابقة للفطرة ولبديهيات العقل فهي العقيدة الحقة، لأن أصدق العقائد والآراء وأصحها هو الرأي أو المعتقد الذي تحسه بالحواس الظاهرة أو الباطنة، وتعيشه وتحياه، ويكون آتياً من منطق الحياة، الذي يعيشه كلُ حيّ في روحه ووجدانه وأحاسيسه ومنسجم مع عقله في بديهياته.

هذه العقيدة التي مقرها النفس، هي التي تملأ النفس لا ما تملأ العقل فقط، ولكنها تملأ النفس بإقناع العقل وتلبي الحاجات النفسية وترفع الإنسان إلى الوعي الكامل للوجود والموجود، وتجعل وجود الله سبحانه ووجود الإنسان ووجود الكون بترابط عند إعطاء الدور الاستخلافي الإلٰهي للإنسان في هذا الكون، فتكون العقيدة حينئذٍ قضية إنسانية كما هي قضية وجودية، لأنها تعني قضية وجود الإنسان، ومن حق الإنسان أن يفهم أسرار حياته وسرّ وجوده، وعليه فالمدافع عن هذه العقيدة يدافع عن عقله ووجدانه ونفسه، والمهاجم عليها يهجم على عقله ونفسه.

ولذا ارتبط الاعتقاد بارتقاء الإنسان، إذ الإنسان نفسه ارتقى في معتقده حتى وصل إلى الاعتقاد بالله الواحد الأحد.

فهذه العقيدة لا يستغني عنها من وجدها، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها، ولا يرفضها من اعتصم بها واستقر فيها على قرار.

ولذا كانت العقيدة تعظم في الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الوجود وأسراره وخفاياه، لا على قدر إحساسه بصغر نفسه وهوان شأنه، لأنها ترجمان الصلة ـ كما تقدم ـ بين الله والكون والإنسان، وكانت امتزاج الصلة بين الوعي والشعور، والخلاصة أن العقيدة يجب أن تكون جامعة لصفوة معرفته بالدنيا مع صفوة إيمانه بالغيب، وأن تكون جامعة لزبدة الثقة بالعمل مع زبدة الإحساس بالحياة.

٤

من أبرز خصائص العقيدة الإسلامية:

١ ـ تربط الإنسان بالله جل وعلا.

٢ ـ تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية.

٣ ـ توضح للإنسان غايته، وتوضح له الطريق الذي يوصله إلى هذه الغاية.

٤ ـ تبعث الثقة والطمأنينة في النفوس، وتجمع الطاقات والقوى بدفعها في تحقيق غاية الإنسان.

٥ ـ تبعث في روح المؤمن الإحساس بالعزة من غير كبر، وروح الثقة من غير اغترار، وشعور الاطمئنان من غير تواكل.

٦ ـ تجعل الإنسان مقوداً من باطنه، نفساً وعقلاً، وليس مقوداً من ظاهره بالقوانين والقوة.

٧ ـ عقيدة قائمة على الحجة توقظ العقل وتنبذ التقليد.

٨ ـ عقيدة قائمة على الفطرة تنبه النفس إلى ملكاتها ومواهبها لدفعها إلى العطاء والعمل.

٩ ـ تربط بين القلب ـ الذي هو نافذة النفس على البدن ـ وبين الفكر، الذي هو نتاج العقل، إلا أن هذا الترابط يتميّز بالقوة والإحكام، ويتميز بالثبات والاستمرار، ويتميز بالاستقرار والتمكين.

١٠ ـ عقيدة مطابقة لفطرة النفس وبديهيات العقل فهي عقيدة واضحة، مبرهنة، تراعي الروح والجسد، ومثلى للفرد والمجتمع، وتدعو للعمل للدنيا والآخرة.

٥

فقد كانت العقيدة الإسلامية أكبر من الإنسان لتحتويه وتهديه، ولا يمكن أن يكون الإنسان أكبر منها حتى يتلاعب بها ويستخدمها لأغراضه.

* * *

معنى العقيدة الدينية

١

العقيدة مشتقة من العَقْد، والعقد هو الجمع بينَ أطراف الشيء في الأجسام، كعقد الحبل وعقد البناء، ثم تُوسع في معناه فاستعمل في المعاني، كعقد البيع وعقد النكاح، لأنه ربط بين المتعاقدين.

وعليه فالعقد هو إيجاد رابطة بين شيئين، ولذا صح إطلاق العقيدة على هذا الارتباط القائم بين القلب ـ كنافذة نفسية على البدن ـ وبين الفكرة أو الرأي أو المنهج المعين.

ويتميز هذا الربط بأمرين **الأول**: الوثاقة والقوة والإحكام، **الثاني**: الاستمرار والثبات عليه.

وتطلق العقيدة الدينية على هذا الارتباط مع قيد أن هذه الفكرة أو الرأي أو المنهج المعين هو الدين الذي يتدين به، بمعنى أن هذه الفكرة أو الرأي أو المنهج المعين هو الذي تتخذه النفس طريقاً في ارتباطها بخالقها، فتعرف الله جل جلاله من خلاله وتتعبّد له وتطيعه عبر شعائر هذا الطريق وعبر العبادات المرسومة في هذا الطريق.

فالاعتقاد هو التصديق النفسي مع التزام النفس بجعله طريقاً

للارتباط بالله جل وعلا، ولذا صح جحود أهل الكفر مع تصديقهم ويقينهم بالمعتقد كما في قصة آل فرعون على ما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

٢

لم يرد لفظ (العقيدة) بالمعنى المتقدم في القرآن الكريم، وإنما ورد فيه كلمة (الإيمان)، لأن للقرآن طريقته الخاصة في عرض الحقائق، وهي طريقة تصلح للخاصة من الناس وللعامة.

فالعقيدة بالمعنى المتقدم متقوّمة بالربط بين النفس وبين الفكرة أو المنهج أو الرأي، مع جعل هذه الفكرة أو هذا المنهج ديناً تتدين به النفس، وعليه فالتعبير عن مقوم العقيدة بلفظ الإيمان في قبال الكفر أولى من التعبير عنه بلفظ (الاعتقاد).

ووجه الأولوية أمران، **الأول**: قسّم الناس على أساس الدين إلى مؤمن وغير مؤمن، وليس إلى معتقد وغير معتقد.

والفارق هو أن أرسطو - وهو من أكابر الفلاسفة - كان يرى شعب أثينا هو النوع الإنساني، والباقي خلقهم الله على أشباهم لخدمتهم، وهو رأي قد اعتقده ولكن لا يقال إنه دينه، لأنه لم يتخذه طريقاً نفسياً للارتباط بالله جل وعلا.

بخلاف اليهود، فإنهم يرون أنفسهم هم شعب الله المختار، والباقي خلقهم الله لخدمتهم، وهو دين لهم، ليس لاعتقادهم به فقط، بل ولاتخاذهم إياه طريقاً نفسياً للارتباط بالله من خلاله.

الثاني: التعبير بلفظ (الإيمان) عن مقوّم الاعتقاد يعطيه مزيداً من الوضوح بأنه رضا وتسليم، كما يعطيه أبعاداً رؤوية في عالم الوعي بأنه عبدٌ له رب، ويعطيه أعماقاً نفسية في عالم الروح بأن تستند النفس إلى خالقها وتتضرع إليه وتتشوف إلى التقرب إليه حباً وشكراً وعرفاناً.

٣

عندما تتخذ النفس الفكرة أو المنهج طريقاً في ارتباطها بخالقها، فهذا الارتباط النفسي بالخالق ارتباط تكويني بحاجة إلى منهجٍ فكان الدين الذي يوضح للنفس كيفية إشباع هذا الارتباط.

وهذا الارتباط النفسي التكويني هو التوحيد النفسي، بمعنى أن النفس مفطورة على التعلق بخالقها، وهذا الذي سماه القرآن بـ(الفطرة) قال تعالى) ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد فصّل الله جل جلاله هذا التعلق النفسي بالله جلّ وعلا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٤].

فعبّر عن هذا الارتباط النفسي التوحيدي بأنه أخذ عليهم الإقرار بالربوبية، وقد كان الأخذ لأمرين، **الأول**: لئلا يحتجوا بالغفلة، **الثاني**: لئلا يحتجوا بتقليد الآباء.

وهذه الآيات من أدق الآيات القرآنية معنىً، فقد حملت عند عامة أهل الحديث وجمع من المفسرين ـ كما في الميزان ج٩ ص٣١٣ ـ على وجود عالم الذّر، ومحصله: أن الله سبحانه بعدما خلق آدم إنساناً سوياً أخرج نُطَفه التي تكونت في صلبه، ثم أخرج من هذه النطف جزءاً منها هي التي تكون أولاده من صلبه، ثم أخرج من الباقي جزءاً منها هي التي تكون أحفاده وأسباطه، ثم أخرج من الباقي جزءاً منها هي التي تكون الجيل الرابع، وهكذا أخرج من النطف نطفاً بعد أولاد آدم إلى يوم القيامة، ثم عرفهم نفسه فخاطبهم وأجابوه وأعطوه الإقرار بالربوبية، ثم ردهم سبحانه بعد أخذ الميثاق إلى مواطنهم من الأصلاب حتى اجتمعوا في صلب آدم.

وأيدوا هذا الحمل بروايات منها: رواية زرارة عن أبي جعفر عليه السلام عندما سأله عن هذه الآيات المتقدمة قال: (أخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذر فعرّفهم وأراهم نفسه، ولولا ذلك لم يعرف أحدٌ ربه) (بحار الأنوار ج٥ ص٢٥٨ حديث ٦١).

وهذه الروايات بعضها صحيح السند إلا أن عددها ليس بالكثير بعد الالتفات إلى أن بعضها مرويٌّ عن راوٍ واحد فهي خبر واحد وليست أخباراً، وبعضهم حمل الروايات على التقية لورود أمثالها في كتب أهل السنة، وبعضهم حملوها على علمه بمصيرهم كما نقل ذلك العلامة المجلسي في بحاره ج٥ ص٢٦٠، وكذا في المصدر نفسه أن بعضهم قد توقف ورد علمها إلى أهلها.

وفي هذا المصدر عن الشيخ المفيد في المسائل السروية وعن السيد المرتضى أن الآية والأخبار محمولة على التوحيد العقلي بمعنى

أن من أكمل عقله دلته آثار الصنع على الصانع، وهذا هو العهد والإشهاد ويكون الأخذ والعهد تكوينيين، عقليين، وتكون المحاورة بلسان الحال لا بلسان المقال.

وهذا الرأي الأخير وإن كان ممكناً إلا أن قوله تعالى بالأخذ من ظهور بني آدم والإشهاد على الأنفس يُبْعده ويُقرّب التوحيد النفسي الفطري.

على أن وجود عالم الذر كما ذهب إليه أهل الحديث غير مقبول ولا معقول، لأن الآية صرّحت بخروج الذرّية من بني آدم وليس من آدم، ولأن العهد على النطفة يستدعي لوازم الفهم والإدراك والشعور، وهذا ما يستلزم التذكّر في الحياة الدنيا، ألا ترى أن الفترة الزمنية بين يوم القيامة وبين الحياة الدنيا أبعد من الفترة الزمنية بين عالم الذرّ وبين عالمنا، ونقرأ في الكثير من الآيات أن أبناء الدنيا لا ينسون في يوم القيامة أفعالهم الدنيوية، فكيف يمكن النسيان العمومي لجميع بني البشر للعهد المأخوذ عليهم في عالم الذر، ومع نسيانه لا فائدة في أخذه عليهم، ولا يصح الاحتجاج به في قبال دعوى الغفلة أو التقليد.

٤

أصالة العقيدة في النفس البشرية مما يؤكده العيان في جميع الشعوب والأمم ابتداءً من الإنسان البدائي إلى الإنسان الحضاري.

وهذه الأصالة ـ كما تقدّم ـ سببها تكويني، لأن الله جل وعلا خلق النفس مفطورة على الإيمان به، ومفطورة على إدراك الوعي

الديني في وجودها.

وعليه فلا يصح مع ذلك البحث بأن الباعث على التدين هو ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة، أو الباعث هو السحر، أو الأسطورة، وإن تصاحبت العقيدة في أجيال الإنسان الأول بكثير من الأساطير والسحر والخوف من الطبيعة.

٥

وبما أن الإيمان بالله مرتكز على الفطرية النفسية التي خلقها الله عز وجل نجد الإنسان قد أخذ بهداية هذا الإيمان الفطري خطوة خطوة، وكان الأخذ بهداية الإيمان الفطري أسبق من إعمال عقل الإنسان في هذه الهداية.

ولذا سبق الإيمان الفطري عند الإنسان الفلسفة التي شيدّها الإنسان نفسه ليصل إلى عقيدة التوحيد.

نعم كلما نضج الإنسان عقلاً وترقّى تفكيراً كلما أصبح أكثر استعداداً لفهم ما حمله من عقيدة التوحيد الفطري.

ولذا كانت بدايات الفلسفة القديمة متأثرة بالإيمان التوحيدي الفطري، إلا أن هذا الإيمان التوحيدي الفطري احتاج إلى الفلسفة فيما بعد عندما أراد الإنسان أن يجهل الاعتقاد علماً له قواعد وأسس، وله أهداف وغايات.

وعلى كلٍ فمهما ارتفعت الفلسفة العقلية فهي لن ترتفع إلى ذروةٍ أعلى مما كان في النفس من الإيمان الفطري.

وعليه فقد يتساوى اثنان في المعرفة، ولا يتساويان في الإيمان، والسبب أن أحدهما تجاوبت نفسه مع فطرتها التوحيدية ومع معرفتها العقلية بخلاف الآخر الذي أغفل نفسه وما فيها، ولم يعمل عقله في سبيل إيمانه.

* * *

الباب الرابع

العقيدة الإلهية

عظمة العقيدة الإسلامية

١

العقيدة الإسلامية أعطت الإنسان عقيدة في الذات الإلٰهية، وعقيدة في الهداية النبوية، وعقيدة في الإنسان ماهيةً ودوراً.

وهذه العقيدة لا تعلوها عقيدة في الديانات، ولا حكمة في النظريات والفلسفات والحَكَميات.

٢

العقيدة الإسلامية هي العقيدة الكاملة التي تعالج أصول الوجود ومصير الموجود، فتحدد الرؤية نحو الخالق، وتعطي النظر نحو المصير، وتبين مكان ورتبة الإنسان، وتدعو العقل للتفكر وللتكامل مع الوحي لتحديد الوظائف الإنسانية نحو كل الموجودات ابتداء من الخالق وانتهاء بآخر موجود في هذا الوجود الكوني الكبير.

٣

العقيدة الإسلامية الكاملة هي فلسفة الوجود والموجود بل هي فلسفة الحياة للإنسان، فهي زادٌ للأمم الإنسانية في طريقها الطويل حيث نضب الزاد من العقائد الروحية السابقة أو كاد، وحيث جف النبع من الفلسفات البشرية والتطلعات الإنسانية.

* * *

العقيدة الإلهية

١

العقيدة في الإله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها، ومن عرف عقيدة قومٍ في إلٰههم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم ودقة النظر، وعرف صحة المقاييس عندهم التي يقاس بها الخير والشر.

فلا يهبط دينٌ وعقيدتُه في الإله عالية، ولا يعلو دينٌ وعقيدتُه في الإله هابطة بما لا يناسب صفات الخالق المنعم، ولا صفات الموجود الأول الذي تتبعه جميع الموجودات.

٢

مجمل العقيدة الإسلامية في الذات الإلٰهية أن الذات الإلٰهية هي: (غاية الكمال المطلق في أشرف الصفات).

فالعقيدة الإسلامية في الذات الإلٰهية **قائمة** على التنزيه المطلق عن كل نقص وعيب، **وقائمة** على التوحيد المطلق الذي لا يحتمل التعدد، **وقائمة** على إنصاف الله بالصفات التي تنبغي لكل كمالٍ مطلقٍ منزهٍ عن الحدود.

فالأولان يحققان التوحيد المطلق المتجسد في كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله)، والثالث يحقق التوحيد الأكبر والأعظم المتجسد في افتتاح الصلاة التي هي معراج المؤمن نحو ربه: (الله أكبر).

وهذان التوحيدان يقتضيان أن يكون الكمال المطلق غايةً في أشرف صفاته، فلذا هو الغاية في العلم والقدرة، وهو الغاية في الخلق والتصرف التدبيري، وهو الغاية في العدل والإحسان، وهو الغاية في الرحمة والغفران.

٣

وعليه فالكمال المطلق في أشرف صفاته لا يكون بغير قدرة وإنعام، ولا تكون القدرة والإنعام بغير خلق وإبداع.

والكمال المطلق عندما يخلق لا بدّ أن يكون الخالق أكمل من المخلوق، وأن المخلوق لا ينعزل عن الخالق، ولا بدّ من علاقة بين الخالق والمخلوق.

والكمال المطلق عندما يخلق لا بدّ أن يخلق المخلوق غير الواعي، والمخلوق الواعي الذي لا يعي إلا ذاته وبعض محسوساته، والمخلوق الذي يعي ذاته ويعي موجده وخالقه.

والكمال المطلق عندما يخلق المخلوق الواعي لذاته ولخالقه لا بدّ أن يربط حقيقته به نفساً، ويعطيه قيادة التنوير والهداية عقلاً، ولا بدّ أن ينزل عليه ديناً حتى تتضح العلاقة بين الخالق وبينه.

وهذه العلاقة هي علاقة اتصال بالوجود الإلٰهي وعلاقة حياة لهذا المخلوق.

٤

بعد بيان هذه العلاقة بين الخالق وبين المخلوق فكلما ترقى المخلوق الواعي فكراً ونفساً كلما ترقت عباداته وسمت عقائده ومُثُله وقيمه ومبادئه، ابتداءً من علاقة الحاجة إلى الله وانتهاءً بعلاقة المعرفة بكماله.

٥

وعليه فأكمل المخلوقين وعياً أكملهم اقتباساً من صفات الله على قاعدة الاستهداء بهذه الصفات الإلٰهية، وحينئذٍ فيكون أكملهم هو أقربهم لياذاً بحكمته وتدبيره وعمله، ومحققاً لكامل مراتب العبودية.

٦

فالعقيدة الإلٰهية في الإسلام هي أكمل عقيدة في العقل، وهي أكمل عقيدة في الدين.

لأن الله هو رب البشرية جمعاء، وليس هو ربّ قبيلة ولا ربّ سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة، ولأنه رب الناس جميعاً فدفعهم ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ **[الحجرات: ١٣]**.

ولا يأخذ إنساناً بذنب إنسان، ولا يُحاسب أمةً لاحقةً بجريرة أمةٍ سابقةٍ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ **[الأنعام: ١٦٤]**،

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

ولا يحاسب أحداً بغير نذير حتى يتكامل العقل والوحي في قطع عذر المذنب، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ولا يكون دينه إلا دين العدل والرحمة، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

٧

أما الذات الإلٰهية في الديانة النصرانية فهي قائمة على عقيدة الثالوث المجتمع من الأب والابن والروح القدس، وأن المسيح هو الابن من هذه الأقانيم، وهو ذو طبيعتين إلٰهية وإنسانية، فقالوا: باللاهوت والناسوت.

وأن المسيح الابن هو ابن الله، أرسله الله فداءً لأبناء آدم وحواء كفارة عن الخطيئة التي وقعا فيها عندما أكلا من شجرة المعرفة في الجنة بعد أن نهاهما من الاقتراب منها.

٨

وقبلها الديانة اليهودية القائمة على تصوير الذات الإلٰهية بأنه إلٰه شعب إسرائيل فقط، وسمّوه (يهوه)، ويريد أن يستأثر بشعب إسرائيل من بين بقية الشعوب، ولا يرجون الخلاص إلا للذين يؤمنون بالولاء لعرش داوود وذريته من بعده، فكان الاعتقاد محصوراً بقوم يعقوب ثم أصبح محصوراً بقوم موسى، ثم بخصوص داوود وأبنائه، فهي عقيدة لإلٰهٍ خاصٍ لشعب مختار بين الشعوب.

٩

هذا ما وصل إلينا من أديان كتابية، وأما ما وصل إلينا من نتائج العقول فأرسطو ـ وهو من أكابر الفلسفة ـ كان يرى أن الله يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها، وأنه منزهٌ عن الإرادة، لأن الإرادة طلب والطلب لا يصدر من الغني، وأنه يجلّ عن علم الجزئيات لأنها من شأن العقول البشرية، وهو غير معنيٌّ بالخلق رحمة ولا قسوة، بل الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعي إليه.

١٠

وأما ما كان من عقائد الوثنية ابتداءً من عبادة الصنم أو الوثن إلى عبادة الكواكب والنجوم والشمس إلى عبادة إلٰهين، إلٰه النور وإلٰه الظلام، وأن الخير من الأول والشرّ من الثاني فهي عقائد تصوّر الذات الإلٰهية أنه من صنع الإنسان ومن أعماله، أو أنه جزء من أجزاء الكون الذي خلقه الله جل وعلا.

١١

أتى الإسلام بالعقيدة الإلٰهية مصحّحاً لفكرة الذات الإلٰهية في العقائد الدينية الكتابية، كما جاء مصححاً لفكرة الذات الإلٰهية في الفكر الفلسفي.

وأتى الإسلام بالعقيدة الإلٰهية مُسقطاً جميع عبادات الوثنية وقد جعلها من الترّهات.

فالعقيدة الإلٰهية في الإسلام بلغت المَثَل الأعلى في الذات الإلٰهية وصفاتها، ومصحّحةً للعقول في تقرير ما ينبغي لكمال الله بقسطاس العقل وبميزان الإيمان، ومن ثمّ كان فكر الإنسان من وسائل الوصول إلى معرفة الله كما ينبغي أن يُعرف.

أتى التوحيد الإسلامي ورفع الإنسان على كتف الكون وبيّن له رتبته ومكانته وأنه سيد هذا الكون، وقد خُلق الكون لأجله، فلذا ابتدأ الإنسان بسبر حقائق هذا الكون لاستخدامها في منافعه، مع أن الإنسان كان أسيراً لوهم الوثنية التي تعبد أجزاء الكون، فجعلته عبداً لها، ووضعت أمامه مانعاً مقدّساً يمنعه من فهم أسرار الكون وحقائقه ونواميسه.

وكان الإنسان أسير الغرور في العقيدة اليهودية كما كان أسير الخطيئة في العقيدة النصرانية فأصبح الإنسان خليفة الله في العقيدة الإسلامية.

وهذا من أكبر معجزات الإسلام بحسب حكم العقل إن كان هناك إنصاف في التفكير وصدق في النوايا.

* * *

التدرج في تحمل العقيدة

١

لا يمكن للإنسان أن يصل إلى العقيدة دفعةً واحدةً، بل لم يفهمها على وجهها الأقوم عندما وصلت إليه، ولذا تعثّر في سعيه، وأخطأ في وعيه، ولم يزل مقيّداً بأطوار الاجتماع وحدود المعرفة عصراً بعد عصر، وحالاً بعد حال.

فلم يُلهَم من هذه العقيدة إلا بمقدار ما يفهم ويتحمل، ولم يهتدِ إلى خطوة جديدة فيها إلا بعد تمهيد أسبابها وتثبيت مقدماتها، فكان الإيمان مساوقاً للمعرفة.

٢

وليس في ذلك ما يقدح في السير الإنساني نحو الغاية القصوى التي يريدها من وراء هذه الخطوات.

كما أنه لا يوجب الشك في صحة الحقيقة الكبرى للعقيدة، لأن معرفة الإنسان بالحقيقة الكبرى دفعة واحدة هو المحال الذي لا يجوز، أما ترقّيه خطوة بعد خطوة فهو السُّنة التي اتّبعها في كل مطلب من مطالبه.

٣

ففي العلوم والصناعات والفنون ـ وهي أساس الحضارة ـ وفي أنماط المعيشة المبنية على استخدام قوى الطبيعة ـ وهي أساس المدنية ـ فلم يتلقها كاملة مستوفاة منذ نشأته، بل مضى عليه الآماد الطوال وهو يتدرج بها خطوة خطوة.

فحاجته إلى الطعام مما لا شك فيه، ومادة الطعام بين يديه، وعلم الطعام والطهو وكيفية الأكل ليس بالعلم المغيّب وراء الحجب والأستار، ومع ذلك تدرّج في علم الطعام ومضى عليه الآلاف من السنين قبل أن يتقن غذاءه، فلا عجب أن يكون طريقه التدرّيجي في فهم كنه العقيدة هو المتعيّن، وإنما العجب ألاّ يكون الأمر كما كان.

* * *

السبب في تعثر حمل العقيدة

١

السبب: **هو أن الإنسان يحسّ قبل أن يفكّر**، فلا بدّ في بداية سيره الإنساني العام أن يفكّر حسياً، فلا يعرف معنى الموجود إلا مرادفاً لمعنى المحسوس، فكل ما هو منظور أو مسموع أو ملموس فهو واقع موجود لا شكّ فيه، وكل ما خفي عن النظر أو دقّ عن السمع فهو والمعدوم سواء.

٢

فتفكيره الملازم لحسّه قاده إلى أن يجعل إلٰهه بقَدْر إحساسه، فكانت عبادة الأصنام وما صنعته يداه، ثم ترقّىٰ في آفاق الفكر فترقّىٰ في مجال العقيدة فعبُد الكواكب والنّجوم قبل عبادة القمر، ثم عبد القمر قبل عبادة الشمس.

فالديانة الشمسية لم تنتشر ابتداءً، لأنها تستلزم درجةً من المعرفة لا تتيسّر للهَمَج وأشباهم في أقدم العصور، لأن عبادة الشّمس تستلزم نظرةً فلكيةً تحيط بنظام الأفلاك، وتستلزم معرفة الإنسان بعلاقة

الشمس بالإنسان من ناحية الفصول ومواعيد السنين حتى تنتظم للديانة الشمسية مراسم ومواسم، وتقام لها معابد ومحاريب، وتستلزم علم الإنسان بآثار الشمس على الأرض وما عليها من إنبات الزرع وتسيير الرياح وتعاقب الليل والنهار والضوء والحرارة ونحو ذلك.

فتستدعي الديانة الشمسية أن يرتفع العقل البشري بفكرة الإلٰه من أفق الأرض القريب إلى الآفاق العليا، بل إلى أكبر موجود محسوس، وأكثره نفعاً وأثراً، فتتسّع دنياه وتتعاظم فيها دواعي الحركة، ويستطيع أن يفسر كل ما حوله بالشمس وآثارها.

٣

الديانة الشمسية كانت الخطوة السبّاقة لخطوة التوحيد الصحيح، وهي العدوة بين عدوة التعديد وعدوة التوحيد.

لأن الشمس أكبر ما تقع عليه العين، ولأنها الأكثر نفعاً وأثراً، فيمكن للعقل أن يفسر جميع حركات الكون المحسوسة بها وبآثارها.

ولكن بعدما يثبت للعقل عدم صلاحية الشمس للعبادة، وأنها مثل بقية أجزاء الكون المحسوسة فتدخل في عداد المعلولات، ويصير الكون المحسوس بما فيه الشمس بحاجة إلى خالقٍ موجدٍ للأرض والسماء والكواكب والنجوم والقمر والشمس.

قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي

رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ [الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩].

فكان قوله عليه السلام لقومه على نحو الاستنكار ليدلّهم على بطلان عبادتهم، وعندما وصل إلى الديانة الشمسية علّل بأنها الأكبر، فيجب أن يتركوا عبادة ما هو أصغر منها، ولمَّا بيّن لهم بطلان عبادة الشمس بيّن لهم لابدّية عبادة الخالق الموجِد للشمس ولغيرها.

٤

لمّا قَبِل الإنسان التوحيد الصحيح بعقله بحسْب ما للعقل من أدلّة وبديهيات فكان الإنسان قد اتّسع آفاق فكره إلى مستوى التوحيد المطلق ولا يحتاج بعدُ إلى معجزة للإيمان بالتوحيد، بل يستطيع أن ينشر التوحيد ويدافع عنه بما لديه من أدلةٍ عقلية.

ومع هذا تعلّم الإنسان من الديانات الكتابية بعد إبراهيم عليه السلام شيئاً فشيئاً حتى بلغ بالذات الإلٰهية نهاية التنزيه، ثم التوحيد الأكبر.

٥

من لوازم تحمل العقيدة بعد التعثر في حملها أن الإنسان ارتفع من عبادة الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة، فأصبحت حاجته إلى المعبود أرفع من مطالب البدن وضرورات المعيشة.

وإن الإنسان عندما عبد الطبيعة كان أقل منها بحسب نظره، وكان مسلوب الحيلة أمامها.

وإن الإنسان عندما عبد ما فوق الطبيعة أصبح له قدرة أن يواجه الطبيعة ويقف أمامها، بل على أكتافها خصوصاً عندما علمته الديانات السماوية أنها خُلقت له وسُخّرت لأجله.

فالفتح الإنساني العظيم أن يدين سلطان الطبيعة ويحكم ببطلانه كما يدين عبادتها مع الحكم بالبطلان فعلاً لا معجزة.

والفتح الأعظم أن يسخّرها ويستفيد منها، وهذا الفتح الأعظم لا يتمّ إلا بانفتاح آفاق العقل من العقل المدرك إلى العقل الرشيد الذي يحدد الوظيفة تجاه كل موجود، وهذا الفتح الأعظم لا يتم إلا بترقّي النفس من خائفة خاضعة لأي جزء كوني إلى نفس مستقلّة قادرة مريدة، وظيفتها إنجاز الدور الاستخلافي الإلهي على قاعدة الاستهداء بصفات الله جلّ وعلا وأفعاله.

* * *

الفطرة هي التي حمت الإنسان

١

ترقّى الإنسان في العقيدة كما ترقّى في العلوم والصناعات، فكانت عقيدته مساويةً لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلوم والصناعات بأرقى من أوائل العقيدة.

نعم ينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل تحمل العقيدة أشقّ وأطول من محاولاته في سبيل تحمل العلوم والصناعات.

لأن فهم الوجود والكون وربطه بالعقيدة، وفهم الإنسانِ والحياةِ وربطه بالدور الاستخلافي أشقُّ مطلباً وأطول طريقاً من فهم حقيقة الأشياء الكونية المتفرقة بحسب ماهيتها أو وظائفها أو ما يستفاد منها.

فكما للناس استعداد لمعرفة الحقائق العلمية ومعرفة فوائدها وكيفية استخدامها عصراً بعد عصرٍ، وطوراً بعد طور، وأسلوباً بعد أسلوب، فكذا استعدادهم لمعرفة الحقيقة الكبرى من العقيدة وأداء الدور الاستخلافي، بل هما أكبر من أن يتجليا للناس في عصرٍ واحد.

٢

تَخَبُّط الإنسان في تحمل العقيدة، بل ما زالت العقيدة تحتوي الأسطورة والخرافة منذ القديم وإلى يومنا الحاضر، ولكن الأسطورة لا تحتويها، فنجد في عقيدة الأولين الإلزام، والشعور بالطاعة، والولاء، والأمل في المعونة والرحمة من جانب المعبود الوثني، ونجد في عقيدة المتأخرين ـ وما زال ـ ما يرجع إلى التجسيم والتصوير ولوازم الحس والخيال في المعبود الإلٰهي.

٣

إلا أن هذا التخبّط لا يعني بطلان التدين في النفوس، ولا يعني الإنكار لوجود العقيدة.

فقد جهل الناس شأن الشمس ولبثوا إلى وقت قريب يقولون بدورانها حول الأرض، ويفسرون حركتها وعوارضها على أساس هذه الحركة، وهذا لا يعني عدم احتياجهم إليها، ولا يعني إنكارهم لوجودها.

والنفس البشرية فيها جوعٌ إلى الاعتقاد والتعبد كجوع الجسد إلى الطعام والالتذاذ به، ولذا كان التدين متأصلاً في بني البشر منذ القديم، ولكن رداءة المعتقد عند الأقدمين وعدم التشخيص الصحيح للمعتقد عند المتأخرين لا ينفي تأصيل الاعتقاد في النفوس، كما أن رداءة المأكول لا يعني إنكار جوع الجسد، وكذا ضعف الإيمان بالتعبّد لا يناقض طبيعة التعبّد النفسي تكويناً.

وهذا الجوع النفسي للاعتقاد والتعبد هو التطلّع التكويني الإنساني إلى الله جلّ وعلا، وهو الذي سمّاه الله في القرآن بالفطرة: ﴿...فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

ولهذه الفطرة فضل الإنقاذ عندما تعثّر الإنسان في تحمّل التوحيد، فقد جعلت الفطرة عالم (الله) مستَقرَّ الوجود، ولم تتركه مستَقرَّ الفناء في الأوهام والخيالات.

٤

فعقيدة التوحيد لم تكن مجهولة قبل إبراهيم عليه السلام، ولكن التوحيد لم يقترن بدعوة النبوة والرسالة، وعندما بدأ التوحيد بالدعوة النبوية اصطبغت العقائد بدعوتها، بحيث كان التوحيد نتاج التطلع الفطري النفسي حتى جاءت نفسٌ حيّة تخاطب النفوس الحية وتُسلّح عقولها باسم (الله) الذي عليه مدار التوحيد، فتطمئن النفوس وتذعن، وتملك العقول الأدلة وتقتنع فينقطع العذر عليها، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وحينئذٍ يلتئم رضا الخالق مع رضا المخلوق في اختيار الدين، ويتوافق العقل والفطرة النفسية ـ وهما لغة التكوين ـ مع لغة الدين النازل من قبل الله جل وعلا.

* * *

الباب الخامس

الهداية النبوية

ضرورة الهداية النبوية

١

هداية النبوة هي الهداية الرابعة بعد هداية الحواس وهداية العقل وهداية الفطرة النفسية، وهي أعلى مراتب الهداية التي منحها الله للإنسان.

فالهداية الحسية فيها نوعٌ من الانتباه وقدْرٌ من الإدراك، ومع ذلك لا تسلم من الخطأ، مثاله: السراب الذي يحسبه الرأي ماءً.

والهداية العقلية أرقى من هداية الحواس، ومع ذلك تتعرض للخطأ، ولذا وقع الاختلاف بين أهل العقول.

والهداية الفطرية النفسية لا تفي برسم الطريق لتمام الكمال الإنساني، ولأن النفس تتنازعها الشهوات والرغبات، ومع سيطرتهما لا تستجيب النفس لفطرتها.

٢

الإيمان بالنبوة والاقتداء بهدايتها أمرٌ لا بدّ منه، لأنه من المحال على حكمة الله جل وعلا بعد خلق الإنسان وتسخير الكون له

أن يتركه بدون الهدي الإلٰهي بعد استنفاذ الهدايات الثلاث من الحواس والعقل والفطرة، التي لا تكفي لهداية النوع الإنساني إلى تمام كماله، فاللّٰه جلّ جلاله جعل أخمص القدم متقعراً ليتمكن الإنسان من السير السوي على وجه الأرض، أفيعقل على حكمة الله أن يترك بعث الأنبياء مع كون الإنسان غير قادرٍ على العروج إلى الكمال إلا بهم، ففي خبر هشام بن الحكم عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال للزنديق الذي سأله: من أين أثبتّ الأنبياء والرسل؟

فقال عليه السلام: (إنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه فيباشرهم ويباشروه ويحاجّهم ويحاجّوه، ثبت أن له سفراء في خلقه يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبّرون عنه جلّ وعزّ، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه حكماء مؤدبين بالحكمة مبعوثين بها غير مشاركين للناس ـ على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب ـ في شيء من أحوالهم مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين لكيلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه عَلَمٌ يدل على صدق مقالته وجواز عدالته).

(بحار الأنوار ج١٠ ص١٦٤ ـ ١٦٥ حيث ٢٥) و(المصدر نفسه ج١١ ص٢٩ ـ ٣٠ حديث ٢٠).

هذا الخبر قد تضمن دليل بعث الأنبياء، وصفاتهم وأنهم

معصومون، وأن الأرض لا تخلو من حجة، وأن النبي لا بدّ له من معجز يدل على صدقه ويؤيد مدعاه، وهذه هي أبحاث النبوة بتمامها.

٣

فبعثة الأنبياء والإيمان بهم ليس بالأمر العجيب بعد الإيمان بوجود الله تعالى، بل الإيمان بالنبوة فرعٌ عن ذلك الإيمان، ولذا كانت بعثة الأنبياء سنةً إلٰهية في كل الأمم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقد بعث الله مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، ففي الخبر عن أبي ذر عليه الرحمة (قلت يا رسول الله: كم النبيون؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثة مائة وثلاثة عشر جماً غفيراً) (بحار الأنوار ج١١ ص٣٢ حديث ٢٤)، وسادة الرسل خمسة وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا الأعظم محمد صلوات الله عليهم أجمعين، وهم أولو العزم، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

أولو العزم نوحٌ والخليل المُمَجّدُ وموسى وعيسى والحبيب محمد

ولذا خصوا بالذكر في آية ميثاق التبليغ للنبيين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وفي الخبر عن أبي جعفر عليه السلام: (أولو العزم من الرسل خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله: (بحار الأنوار ج٥ ص٣٣).

وعليه فهناك تفضيل لبعض النبيين على بعض، قال تعالى: ﴿...وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

٤

المذكور في القرآن منهم خمسة وعشرون هم:

آدم وإدريس ونوح وهود وصالح.

وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وشعيب وأيوب وذو الكفل وموسى وهارون وداود وسليمان وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وعيسى والنبي الأعظم محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

وهناك رسل وأنبياء لم ترد أسماؤهم في القرآن الكريم، ولكن أشار الله إليهم، قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وأنزل الله تعالى مائة وأربعة كتب، وهي على قسمين، قسم مشتمل على أدعية ومناجاة وغير ذلك مما لا يشتمل على رسالة كاملة من عقيدة وشريعة، كزبور داوود ﷺ، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وكذا ما في الروايات من نسبة كتب إلى آدم وشيث وإدريس ﷺ.

وقسمٌ مشتمل على رسلة كاملة من عقيدة وشريعة قال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

* * *

الفارق بين النبي والرسول

١

النبي: حامل النبأ، والرسول: حامل الرسالة.

وقيل: الفرق بينهما أن النبي هو الذي يحمل النبأ، سواء أُمر بالتبليغ أم لم يؤمر، وأن الرسول هو الذي بُعث لتبليغ ونشر الرسالة، ويكون بينهما عموم وخصوص مطلق.

٢

ولكن ينافيه عدة آيات في القرآن **منها**:

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]، وهو في مقام المدح والتعظيم، ولا يناسبه التدرج من الخاص إلى العام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، حيث جمع بين الرسول والنبي مع جعل كلٍ منهما مرسلاً، ومثله

في الاستدلال قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، حيث جعل البعث والإرسال لكل النبيين لا لخصوص المرسلين.

وعليه فالنبي والرسول كلاهما مرسل من الله جلّ وعلا إلى الناس، غير أن النبي بُعث لينبىء الناسَ بما عنده من أنباء الغيب، وأن الرسول بُعث برسالة خاصة زائدة على تبليغه بما عنده من أنباء الغيب.

٢

فالنبي يبيّن للناس صلاح معاشهم ومعادهم من أصول الدين وفروعه على ما اقتضته عناية الله من هداية الناس إلى كمالهم.

والرسول هو الحامل لرسالة خاصةٍ مشتملة على **إتمام الحجة** بحيث يستتبع مخالفتها هلاك أو عذاب، ولذا قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [النحل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤٧].

ويكفي في المقام قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وهو ميثاق التبليغ، وهو مأخوذ من النبي والرسول معاً، وإن خصّ أولي العزم بالذكر لتحملهم ميثاق تبليغ الرسالات الكبار.

* * *

الفارق بين أولي العزم
وبين غيرهم من الأنبياء

١

أولو العزم أصحاب النبوات الكبار، وهم أصحاب رسالات كبرى، تدعو إلى انقلاب جذري في عقائد الناس وحياتهم، ولذا أقدموا على أمورٍ صعاب وشقوا دعوتهم بطرق لا يسهل تذليلها من تحطيم آلهة وتسفيه أحلام وتغيير عقائد وتثبيت شرائع، ولذا كانت الفترة بين رسولٍ منهم وآخر تطول حتى تبلغ مئات السنين.

مما يدلل على أن ظهور كبار المرسلين وأصحاب الرسالات الكبرى هو حادث جلل، لا يتكرر في عمر الإنسان الواحد، ولا في عمر الجيل الواحد، ولا في القرن الواحد.

٢

أما بقية الأنبياء فتختلف دعوتهم عن دعوة أولي العزم، وتختلف الصعاب التي تعرضوا لها، وتختلف الفترة الفاصلة بين نبيٍ منهم وآخر.

فدعوتهم في تأييد العقائد والشرائع التي جاء بها أولو العزم، والصعاب التي تعرضوا لها كان بالتنديد على من يخالف العقائد والشرائع التي هي الرسالات الكبرى.

وقد يجتمع في زمن واحد أكثر من نبي، حتى ورد في سفر الملوك الأول اجتماع أربع مائة نبي في عصر واحد.

فهم حراس عقائد وشرائع، ودعاة امتثال حتى يبلغ التطهير إلى أعماق النفوس، ودعاة اجتثاث ما تنطوي عليه النفوس من بذور الفساد وظهور الشر.

* * *

الهداية النبوية
عبر مراحل تطور الفكر وترقي النفس

١

من الصحيح أن تاريخ الأديان لا يرسم لنا خطاً فاصلاً بين عهدين، أحدهما مخالف للآخر، ومن الصحيح أيضاً ما من عهدين من عهود الأديان إلا وبينهما تمهيد وتعقيب، لأن ما من رسالة إلٰهية دينية ظهرت للناس طفرة بدون رسالة سابقة.

ومنه تعرف أن القرآن الكريم عندما تكلّم عن التاريخ الإنساني لم يتكلم عنه بحسب أرقام السنين، ولا بحسب اعتلاء الملوك لعروشها، ولا بحسب زوال سيادة الأمم وتعاقب أمم أخرى.

بل تكلم عن التاريخ الإنساني، الذي هو تاريخ الأديان بحسب مراحل تطلع الفكر الإنساني وبحسب الترقي النفسي في آفاقها.

فالتاريخ الإنساني هو تواريخ الأديان، وهو طريق الإنسانية إلى الله، لأن تواريخ الأديان كلها تصبّ في إيكال هداية النفس إلى حرية الإرادة وإعمال العقل برعاية الله جلّ وعلا.

٢

المتأمل في الآيات القرآنية يجد أن هداية النبوات عبر مراحل الفكر والنفس قد مرت في خمس مراحل.

١ ـ مرحلة الميثاق الفطري، وتبدأ بنبي الله آدم ﷺ.

٢ ـ مرحلة الحجة الرسالية، وتبدأ بنبي الله نوح ﷺ.

٣ ـ مرحلة النبوة القائدة، وتبدأ بنبي الله إبراهيم ﷺ.

٤ ـ مرحلة النبوة العاقلة، وتبدأ بنبي الله الأعظم محمد ﷺ.

٥ ـ مرحلة الوراثة، وتبدأ بظهور الإمام الحجة من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

هذه المراحل تتميز ببداياتها، ولكنها تتداخل في امتداداتها ونهاياتها، فإذا كانت مرحلة الميثاق الفطري تبدأ بآدم ﷺ فإنها لا تنتهي بنوح ﷺ، وإنما رسالة نوح ﷺ أضافت إلى الفكر الإنساني والترقي النفسي عاملاً جديداً في هداية الإنسان وتوجيهه، وهكذا في بقية المراحل.

٣

الدليل على هذه المراحل الخمسة هو مجموع آيات:

الأولى والثانية: قول الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وفي مجمع البيان عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير هذه الآية قال عليه السلام: «كانوا قبل نوح أمة واحدة على فطرة الله».

فالآية مع الخبر يدلان على أن ما قبل نوح عليه السلام كانت المرحلة الأولى وهي مرحلة الميثاق الفطري، وهي مرحلة ابتدأت بآدم عليه السلام.

ويدلان على أن مرحلة الحجة الرسالية ابتدأت بنوح عليه السلام، والمراد بالحجة الرسالية هي بعث رسالة خاصة مؤلفة من عقيدة وشريعة مشتملة على إتمام الحجة بحيث يستتبع مخالفتها الهلاك أو العذاب، ولذا لم يخبر المولى جل وعلا في القرآن عن نزول عذابٍ على أمةٍ قبل أمة نوح عليه السلام.

الثالثة: قول الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ **[البقرة: ١٢٤]**.

فالإمام هو القائد، وإبراهيم عليه السلام قاد حركة التوحيد، ونقل العقل الإنساني من عبادة الشمس التي هي أعظم موجود في عالم الشهادة إلى عبادة الإله في عالم الغيب، وكانت الديانة الشمسية هي المعبر بين عدوتين، عدوة التعديد وعبادة عالم الشهادة، وعدوة التوحيد وعبادة الإله في عالم الغيب.

الرابعة: قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ **[الأحزاب: ٤٥]**، فهو شاهد لما يعمله العقل، بعد ما صار العقل هو القائد لهداية الإنسان، وهذا ما تم على يد النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، وهذه الشهادة من مختصاته صلى الله عليه وآله وهي غير الشهادة الأخروية وقت الحساب من الأنبياء عليهم السلام على أممهم، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ **[النساء: ٤١]**.

الخامسة: قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ **[الأنبياء: ١٠٥]**.

وقد تواترت الأخبار في كتب الفريقين أنه يتم في عصر ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى، (راجع معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام ج١ ص١٠٤ ـ ١٦٧).

وهذا الميراث هو ميراث تسيير الحياة بقيادة الحركة العقلية والترقي النفسي.

ولذا كانت الأمة الإسلامية وارثة للأنبياء عليهم السلام، فلذا أُمرت بالدعوة بعد التفقه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

* * *

الهداية النبوية في السنن الإنسانية

١

كما كان السير الإنساني في مقام تحمل العقيدة في الذات الإلٰهية وتدرجه في فهمها يقتضي الاختلاف في الهدايات النبوية، كذلك السير الإنساني في سنن الاجتماع والعدل وتكامله فيهما يقتضي الاختلاف فيها أيضاً.

٢

فالنبوات من لدن آدم ﷺ إلى نبوة نوح ﷺ مروراً بنبوة إدريس ﷺ كانت نبواتٍ بمقدار فطرته وحاجاته الطبيعية، وهذا ما اقتضى تركيز النبوات في السير الإنساني على **بناء البيت والأسرة، مع وضع أسس الاجتماع وتمصير الأمصار** بعد تكاثر الأسر، **وبناء الدورة الزراعية**، وهي الأعمال التي تبدأ منها الحضارة والمدنية والتي تقتضيها الحاجات الطبيعية للإنسان، ولذا كانت الحضارات القديمة في مصر وبين بلاد النهرين ـ دجلة والفرات ـ حضارات زراعية قائمة على القرب من الأنهار والشطوط المائية، **مع وضع أسس العدل الاجتماعي** لينال كل ذي حقٍ حقه.

والنبوات من نبوة نوح عليه السلام إلى نبوة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله هي نبوات ـ بعد ما صار الإنسان صاحب شخصية فردية مستقلة ولذا بنى بيته وأسرته، وصاحب شخصية اجتماعية بمعنى أنه جزء من المجتمع، ولذا كان له دور في عمل هذا المجتمع، وعلى الأقل في دورته الاقتصادية ـ ليصير الإنسان جزءاً من أمة إنسانية مستقلة بذاتها، بمعنى أنها تحمل هدايتها بعقلها ونفسها، وتؤدي دورها الاستخلافي من دون معاجز وتدخل غيبي إلٰهي.

وهذا ما استدعى أن تركّز هذه النبوات على ترسيخ أسس الاجتماع وترسيخ أسس العدل الاجتماعي اللذين تمّا في مرحلة حاجات الميثاق الفطري، وتزيد عليهما في بناء سلم التكامل الاجتماعي ليصير التكامل على مستوى الإنسانية، وفي بناء سلم العدل الاجتماعي ليرتقي إلى العدل الإنساني السوي.

وهذا ما استدعى التركيز في نبوة نوح عليه السلام على ترسيخ أسس الاجتماع وأسس العدل الاجتماعي مع محاربة الوثنية والشرك.

واستدعى التركيز في نبوة إبراهيم عليه السلام على تهيئة الإنسان ليحمل العقيدة في الذات المقدسة مع التمهيد لبناء السلم التكاملي الاجتماعي، والتمهيد لبناء السلم العدل التكاملي الاجتماعي.

وكان هذا التمهيد بإيجاد مناخين بشريين، واحد يتدرّب على الاجتماع المدني المبني على التشريع الإلٰهي على نطاق الأمة، وهو القريب، والآخر يتدرب على الاجتماع المدني المبني على التشريع الإلٰهي على نطاق الإنسانية، وهو البعيد.

والأول كان من ذرية إسحاق ﷺ على يد موسى وعيسى ﷺ، والثاني كان من ذرية إسماعيل ﷺ على يد النبي الأعظم محمد ﷺ.

وفي فترة هذه النبوات التي أتت بعد مرحلة الميثاق الفطري فكل مجتمع تعرض لهدم أسس الاجتماع أو أسس العدل تدخل المولى بعذاب الاستئصال، وأزاحهم عن الحياة الدنيا. وقد ذكر المولى جل وعلا في القرآن نموذجين لمن تعرض للهدم:

الأول: عند شيوع الفاحشة بإتيان الرجال في زمن لوط ﷺ، وهذا الشيوع هدم لأسس الاجتماع المبني على تأليف الأسرة التي يتكون منها المجتمع.

الثاني: عند شيوع التطفيف في المكيال والميزان في زمن شعيب ﷺ مع قطع الطرقات على السابلة والقوافل، وهذا هدم لأسس العدل الاجتماعي.

* * *

النبوة الخاتمة

١

أتت نبوة النبي الأعظم ﷺ لتحمّل العقل هداية النفس، فلذا خاطبته وأقنعته بخلاف النبوات السابقة القائمة على معاجز تقمع العقل.

وأتت نبوة النبي الأعظم ﷺ بفكرة الإنسان المسؤول والمحاسَب على هداية نفسه من خلال أمانة العقل وإرادة النفس، وبذلك أتت بدين الإنسانية العامة.

إذ لا يمكن إيجاد فكرة الإنسانية الجامعة قبل أن يوجد الإنسان المسؤول المخاطَب بخطاب العقل، ويحمل تبعاتِه على عاتقه، ويشترك مع بني نوعه في عبادة إلٰه واحد، وهو رب العالمين، وهذه قوام الديانة الإنسانية.

وأتت نبوة النبي الأعظم ﷺ مركّزة على ترسيخ أسس الاجتماع وأسس العدل، وفاتحة للآفاق الفكرية والنفسية لبناء السلّم الاجتماعي والعدلي على مستوى الإنسانية جمعاء.

وأتت نبوة النبي الأعظم ﷺ بما يشبع النفس من الإيمان والتديّن اللذين هما أساس الفطرة النفسية في الإنسان.

ويتم الإشباع النفسي من مجموع أربعة أمور:

الأول: أن يقرر الإيمان مكانةَ الإنسان في هذا الوجود، حتى يشعر أنه جزء من هذا الوجود، وليس بأمرٍ غريب عنه.

الثاني: أن يقرر الإيمان وجوده حتى يقطع بأنه مكفول البقاء بغير انتهاء.

الثالث: أن يقرر الإيمانُ سنداً لهذه النفس، حتى تستمد منه قوتها وتعتمد عليه في سيرها.

الرابع: أن يقرر الإيمان حياته بتحديد الوظائف تجاه كل الموجودات.

فلا معنى للإنسان ما لم تستقر فطرته، ولا تستقر فطرته إلا باستشعار وجوده وأنه غير صائر إلى العدم بعد ما ذاق طعم الوجود، وأنه صاحب قدرة مستمدة من سندها لتستطيع النفس بالنهوض في مهامها، وأنه صاحب رؤية وجودية وحياتية بتوضيح الطريق الوجودي والسلوكي له.

فنبوة النبي الأعظم ﷺ أوضحت أن الإنسان هو سيدُ هذا الكون، وأن الكون مسخّر له وبهذا عرف مكانته، والنبوة المحمدية أعطته الإيمان بالآخرة وأنه دائم الوجود فيها والخلود، وبهذا عرف أنه مكفول البقاء.

والنبوة المحمدية أعطته عقيدة كاملة شكّلت له سنداً نفسياً، وهذه العقيدة المبنية على الفطرة النفسية المرتبطة بخالقها يستمد منها القدرة والتوفيق في أداء مهامه.

والنبوة المحمدية أعطته شريعة شاملة لكل الجوانب وبهذا تبيّن له جميع الوظائف.

ولذا كانت النبوة المحمدية قد أشبعت النفس بما لا مزيد عليه وفتحت الطريق أمام مناحيها لترتوي بما عندها من إمكانيات وتوجهات.

٢

فالنبوات السابقة لم تفرغ من مهامها قبل أن تخاطب العقل وتحمّله هداية النفس، ولم تفرغ قبل أن تخاطب الإنسان المسؤول والمحاسب، ولم تفرغ قبل أن توجد بناء الدين الإنسانية، ولم تفرغ قبل أن تشبع النفس من الإيمان والتدين.

وعندما أتت نبوة النبي الأعظم ﷺ وخاطبت العقل وحمّلته هداية النفس وخاطبت الإنسان المسؤول وأوجدت بناءً لدين الإنسانية الجامعة وأشبعت النفس في شوقها العميق الفطري من الإيمان والتديّن فلا يبقى للهداية النبوية أيّ دورٍ في مجالات الهداية فلذا خُتمت بنبوة النبي الأعظم ﷺ.

وكانت النبوة الخاتمة أفضل النبوات لأنها أعطت العقيدة الكاملة وأعطت عموم الهداية بما فيها الشريعة الشاملة التامة وأعطت كل ما له الدخل في ماهيّة الإنسان ودوره.

٣

بعد استنفاذ النبوات من هدايتها يأتي دور الإنسان ليُعمل عقله ويهتدي بعقله المتكامل مع الوحي، ويحافظ على أسس الاجتماع والعدل، ويأتي دوره للصعود في التكامل الاجتماعي والعدلي ولرفع شخصيته إلى مستوى الإنسانية الجامعة، وليشبع نفسه من الإيمان والتدين بحسب مناحيها وتطلعها.

ويكون الإنسان من مرحلة أول وجوده إلى آخره عبر الهدايات النبوية والهداية العقلية قد سار من مرحلة الكائن صاحب الفطرة والغريزة إلى الإنسان الذي يضبط غرائزه ويسوق فطرته ويستثير ملكاته ومواهبه ويصعد في معارج مناحي النفس وتطلعاتها، ويصل إلى الكائن العاقل المتلمس طريق الكمال والمتدرج فيه بحسب استعداده وتكوينه النفسي والعقلي تحت عناية ربانية إلٰهية.

* * *

أسباب الصراع الإنساني
بعد وجود الهدايات السابقة

١

مع وجود الهداية الفطرية والهداية العقلية والهداية النبوية بقي الصراع الإنساني مع ما ينتج عنه من الشر والفساد، وهذا ما يستدعي الكلام عن الأسباب الواقعية للصراع وعن محاوره التفصيلية.

٢

هناك قوانين وسنن تتحكم في بني النوع الإنساني في كل مجالاته، فلا يصح فهمها بنظرة عفوية، أو نظرة غيبية استسلامية، إلا أن هذه القوانين لا تتجاوز الإنسان، بمعنى أنها لا تُسحق إرادته، وهذا هو الفارق بينها وبين القوانين الطبيعية.

فالثانية فوق الإرادة، والأولى خاضعة للإرادة الإنسانية، فهي قوانين لها علاقة بعمل الإنسان المتحرك نحو هدفٍ ما، أي: العمل الهادف، وليس لها علاقة بأي عمل يقوم به الإنسان إن لم يكن هادفاً.

وهناك آيات تدل على ذلك منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

٣

فالإنسان عنصر فاعل في هذه السنن الإنسانية، وليس عنصراً قابلاً، بل الإرادة هي صاحبة القرار في هذه السنن التي تقتضي التحول البشري.

إلا أن هذه السنن وإن توقفت على الإرادة الإنسانية إلا أنه يدخل في التأثير فيها العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والجغرافية، ولكن تأثيرها على نحو المقتضي وليس على نحو العلة التامة والسبب الكامل.

٤

هذه السنن الإنسانية هي مسرح الصراع الإنساني في إعمار الدنيا وبناء المجتمع والأمة، وفي عبوديته لله وتحليه بالأخلاق، وفي صنع الحضارة والمدنية.

وهذا الصراع الإنساني حينئذٍ ليس صراعاً عبثياً، بل صراع لتحديد المنهج الأفضل للحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية، فإذن الصراع صراع بين أعمال إنسانية هادفة.

٥

هذا الصراع بحقيقته صراع ذاتي في الإنسان قبل أن يكون صراعاً خارجياً في الأفعال، فهو صراع بين دوافع الإنسان الفطرية ودوافعه الغريزية، ثم يستمر مع صراع آخر بين علمه وجهله.

٦

هذا الصراع الهادف وإن توقف على الإرادة الإنسانية، إلا أن الإرادة الإنسانية بحاجة إلى التدخل الإلٰهي، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ **[الأنفال: ١٧]**.

وبسبب التدخل الإلٰهي كان هذا الصراع متلازماً مع ظاهرة النبوة.

٧

شهد النوع الإنساني مرحلتين في سيره العملي الهادف.

المرحلة الأولى: مرحلته البدائية التي كان يحكمها الحسّ الفطري والحاجات الطبيعية لتسيير بدائية الحياة ولقضاء هموم محدودة وحاجات بسيطة، ودفع هذه الحياة البدائية إلى مستوى بناء البيت والعائلة والمجتمع، وكان الصراع في هذه المرحلة بسبب دوافعه الفطرية والغريزية.

المرحلة الثانية: بعد استنفاذ الحس الفطري ودوافع الحاجات الطبيعية لتسيير الحياة، فلا بدّ من تسيير الحياة ودفعها إلى مستوى

الأمة، وهذا ما تم على أيدي الأنبياء العظام، وهم أول العزم من الرسل بتأسيس قواعد عامة وأصول محكمة لاستنهاض المواهب والقابليات والإمكانات المتفاوتة والتطلعات الفطرية والترقيات النفسية.

٨

هذه المرحلة الثانية من التحول البشري وتحكيم السنن الإنسانية على أيدي الأنبياء العظام هي على قسمين:

الأول: ابتدأ بنوح ﷺ واستمر مع إبراهيم وموسى وعيسى ﷺ، فكان تسيير الحياة الإنسانية من خلال الملكات والمواهب والقابليات النفسية مع قيد سلبي، وهو عدم التعدي.

الثاني: ابتدأ مع النبي الأعظم ﷺ ولم ينته بالتحاقه بالرفيق الأعلى، ولم يزل التحول مستمراً، لأنه بعد إيجاد الأسس لانطلاق الملكات والمواهب والقابليات لا بدّ أن تتسع آفاق النظر وتترقى النفس وتتنوع التطلعات وتتعقد الحاجات فلا بد من تسيير الحياة على إبقاء أسس القسم الأول مع إضافة أسس وقواعد للتطلعات الفكرية والترقيات النفسية مع قيد إيجابي لأن العقل هو الذي سيحمل الهداية الإنسانية، وهو تحديد القيم والمبادىء والموازين في كل المجالات الإنسانية.

وهذا القسم الثاني بحاجة إلى فترة زمنية طويلة أو قصيرة تبعاً للإرادة الإنسانية حتى يؤتي ثماره في تجسيد العدل وفي استمرار وحدة الأمة الإنسانية في السير الإنساني التكاملي.

٩

أشار المولى جلّ وعلا إلى هاتين المرحلتين بقوله تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ إشارة إلى المرحلة الأولى، فهم أمة واحدة بحسب فطرتهم وحاجاتهم الطبيعية، ولذا ورد في مجمع البيان عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير هذه الآية، قال عليه السلام: (كانوا قبل نوحٍ أمةً واحدة على فطرة الله). وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. . . إشارة إلى المرحلة الثانية.

وبعد نزول الرسالات الإلٰهية كان الخلاف والصراع في تسيير الحياة دائراً على ما آتاهم الله من العلم، وهذا الصراع بحسب علم الإنسان وجهله، وينتج عنه الظلم والبغي.

١٠

الإنسان بحسب نوعه أعطي قوة الإدراك والتفكير، فيدرك ما حوله من موجودات وحوادث، ويعلم بالتفكر ما ستؤول إليه، فيعلم حينئذٍ أن له ارتباطاً بكل شيء مما حوله، وهو ارتباط الانتفاع منه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ﴾ [الجاثية: ١١]، وقال تعالى: ﴿...خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

ومن هذه القوى: قوة الإدراك وقوة التفكير وقوة التسخير والانتفاع تحدث عند النوع الإنساني مفاهيم اعتبارية.

وهي مفاهيم لا تحكي عن أمورٍ خارجية مستقلة عنّا، **بل هي مفاهيم محوطة بالعمل.**

لأن الإنسان بعد إدراكه الموجودات والحوادث وما ستؤول إليه، وبعد إدراكه أنه مزود بقوى التسخير والانتفاع فلا بدّ أن ينزع إلى العمل.

وعند نزوعه إلى العمل تنشأ عنده مفاهيم الحب والبغض والشوق والميل والرغبة فيما يعمل وفيما يترك.

وهذه المفاهيم النفسانية المرتبطة بالعمل تفرض علينا أن نحكم على عملٍ ما بالحسن، وعلىٰ الآخر بالقبح، فيكون الحكم بالحسن أنه مما ينبغي فعله، والحكم بالقبح أنه مما ينبغي تركه.

وهذه الأحكام تسمى بالمدركات العملية للعقل - في قبال المدركات النظرية للعقل - وهي أساس قاعدة التحسين والتقبيح العقليين.

هذه المدركات العملية هي التي تربط الإنسان بالوجود المحيط به مع علمه بأنه يجب استخدامه بكل ما يمكنه الانتفاع به في طريق تكامله، وفي ترسيم المنهج الأفضل لحياته.

وعلى هذا الأساس يتصرف بالحيوان فضلاً عن النبات والجماد في مجالات الغذاء واللباس والمسكن ونحو ذلك.

وكذلك يتصرف بسائر أفراد بني النوع الإنساني ليستخدمها ويتصرف فيها بما يتيسر له من التصرف.

ولكن كما يريد هو التصرف المذكور يريد غيره من أفراد النوع الإنساني التصرف المذكور نفسه، وهذا ما يقتضي النزاع والصراع بينهم، وهو صراع بحسب علم الإنسان وجهله.

١١

هذا والصراع في المرحلة الإنسانية الأولى لم ينته وإن انتهت المرحلة، لأن الفطرة ودوافعها والغرائز النفسية تبقى ببقاء الإنسان، فلا بد من طلبها مهما بلغ حاله وعلمه وملكاته ومواهبه وتطلعاته الفكرية وترقياته النفسية.

ولما دخل الإنسان في المرحلة الإنسانية الثانية دخل إليها وهو حامل صراعه السابق مع اشتداد الصراع بحسب المرحلة الإنسانية الثانية.

لذا قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ **[الأحزاب: ٧٢]**.

فقبول الإنسان لأمانة التكليف سُنَّة مغروسة في كيانه النفسي، وهذا ما ميزه عن بقية الكائنات، إلا أنه ظلوم لأنه يتعدى الحدود وهو يعرفها، وجهول لأنه يتعدى الحدود وهو لا يعرفها، ولكن عنده أمانة الفطرة النفسية والبديهيات العقلية التي تستقبل وتتحمل الهداية النبوية إلى المعرفة والعلم بهذه الحدود.

* * *

نور الهدايات باقٍ مهما اشتد الصراع

١

الإنسان قد يأتي بالأعمال والصناعات ويكشف عن العلوم ويصنع الحضارات، ولكن لا يستطيع أن يصنع الرسالة المؤلفة من عقيدة وشريعة.

بل تأتيه الرسالة الإلٰهية ولها جانبان، جانب قابل للبحث والفهم، وجانب غير قابل إلا للتسليم.

ولذا كانت الرسالة الإلٰهية تسخّر الإنسان ولا يسخّرها كما يهوى وإن خُيّل إليه أنه يعمل في تسخيرها بهواه.

ومن باب المثال فالأمم الذين دخلوا الإسلام أرادوا أن يستخدموه في إحياء قوميتهم، فاستخدمهم الإسلام في توطيد عقيدته وترسيخ شرائعه.

فالمغول جاؤوا من أقصى المشرق ليقيموا (سلطنتهم) على أركان العقيدة والشريعة، فأصبحوا حراساً لهذه الأركان.

٢

نعم الرسالة الإلٰهية لا يمكن تسخيرها إلا إذا أتت رسالة إلٰهية أقوى، والأقوائية هي الأحق بالعمل في تاريخ الإنسانية، وهو طريق تسيير الإنسان والارتقاء به في معارج الكمال نحو الاقتداء بصفات الله جلّ وعلا وأفعاله.

وحلول الرسالة الأقوى مكان غيرها هو تقدم تعاون بين الرسالات، لا تقدم غلبة وانكسار، ولا تقدم منتصر ومهزوم، وهذا التعاون يتم بالاعتماد على ما تقرر في الرسالة السابقة، وبالسعي المتواصل والمتطلع نحو الكمال على ما تقرره الرسالة اللاحقة.

ولذا اندكّت هدايات النبوات كلها في هداية نبوة النبي الأعظم ﷺ، التي هيأت العقل لهداية التنوير، وهيأت النفس لقيادة السيطرة والإحكام.

ومهما بلغ الصراع أشده لا يستطيع حينئذٍ أن يُطفي نور الهدايات النبوية بعد ما اشتعل نور الهداية النفسية والعقلية، لئلا تخلو الأرض من حجة، ويبقى لله الحجة البالغة.

* * *

الباب السادس

الشريعة الشاملة التامة

الفرق بين الشريعة والفقه والقانون

١

الشريعة هي: ما نزل من القرآن على قلب النبي الأعظم ﷺ، قيل: بحدود خمسمائة آية، وقيل: أقل من ذلك، وسميت بآيات الأحكام.

وتشمل الشريعة أيضاً ما قاله المعصوم عليه السلام أو فَعَلَه أو قَرَرَه، والمراد بالمعصوم هو النبي الأعظم ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام.

أما الفقه فهو ما يفهمه الفقيه الجامع لشرائط استنباط الأحكام من مصادر الشريعة، وهي أربعة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

٢

القانون ينظم أحوال الجماعة **لتسيير أمور حياتها**، وكلما تطورت هذه الأمور أو تعقدت احتاجت الجماعة **لتطوير قانونها**، والقانون يحمل صفات واضعه، من نقص العقل البشري في إدراك تمام

المصالح الواقعية للنوع الإنساني، ولذا تضع الجماعة البشرية بعض تشريعات القانون من باب الخطأ أو الجهل، ثم تستدركه إذا عاد إليها رشدها أو تطور تفكيرها وأدركت خطأها.

بخلاف الشريعة الإسلامية، فإنها من صنع الله جلّ وعلا **لتسيير أمور الإنسان** في حياته وبعد وفاته، مع **توجيه الإنسان** نحو العمل الهادف الذي يصب في مصلحته الدنيوية والأخروية، ويصب في مصلحة المجتمع والأمة والإنسانية.

فالشريعة الإسلامية تنظم أحوال الإنسان ولا تنظم أحوال جماعة مخصوصة فقط، وتوجهه نحو الأكمل، وكلما تطور ضُمِّنَ توجيه التشريع كان التطور ملحوظاً بعين التشريع الإسلامي، فيبقى التشريع الإسلامي أسبق من عمل الإنسان المنظم والهادف، ولذا لا داعي لتغييره، ويكون التشريع أرفع مهما ترقت معارف الإنسان واتسعت علومه ودائرة تفكيره وترقت مناحي النفس في تكاملها.

بالإضافة إلى أن الشريعة باعتبارها من صنع الله جل وعلا فهي تحمل صفات واضعها من كمال وحكمة وتدبير، فالخطأ والجهل فيها منتفٍ، فضلاً على اشتمالها على كلياتٍ وقواعد تواكب التقدم البشري، وهذا ما يعصمها عن التغيير في ثوابتها وكلياتها.

هذا ولما كانت الشريعة الإسلامية تحمل في طياتها التوجيه فضلاً عن التنظيم فهي تريد صنع الفرد الصالح والجماعة الصالحة والمجتمع الصالح والأمة الصالحة.

فهي توجهه نحو إيمانه وكماله وعمله الدنيوي والأخروي فاتحةً أمامه آفاقاً للتكامل في سيره، ولذا ركَّزت على الكيف والنوع أكثر مما

خصائص الشريعة الإسلامية

للشريعة خصائص أبرزها أمور:

الأول: الربانية، وهي من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: ربانية المصدر.

فمصدر الشريعة هو الوحي الإلهي السماوي.

الوجه الثاني: ربانية المنهج.

والمنهج هو الذي رسمه الله جلّ وعلا ضمن الدين الإسلامي لإيصال الإنسان إلى غاياته وأهدافه التي خُلق من أجلها، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ **[الملك: ١٤]**.

الوجه الثالث: ربانية الغاية.

فالإسلام قد جعل غاية الإنسان وهدفه إقامة الصلة العبودية لله جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ **[الانشقاق: ٦]**.

الثاني: الإنسانية.

الشريعة الإسلامية أتت للعناية بالإنسان تكميل نفسه ببيان واجباته وحقوقه.

ركّزت على الكم والعدد، لأنها تريد قوة العقيدة في القلوب والأعمال، وتريد قوة العقول في المعارف والحكمة وفهم الغايات، وتريد قوة الإرادة في السلوك المستقيم.

وتريد سدّ حاجاته الروحية والعقلية والبدنية، وسدّ حاجاته الأسرية والاجتماعية، وترسيخ إنسانية الإنسان والعبودية لله في ذاته، كل ذلك من خلال تطبيق الشريعة.

ومما تقدم يتبين أن الشريعة الإسلامية امتازت بثلاثة أمورٍ جوهرية:

الكمال: فقد استكملت الشريعة كل الحاجة البشرية إما عبر ثوابتها أو عبر كلياتها وقواعدها.

السمو: الشريعة دائماً أسمى من حاجات البشرية، لأن فيها من المبادىء والكليات والثوابت ما يحفظ لها هذا المستوى السامي مهما تعاظمت حاجة الإنسان وكثرت.

الدوام: الشريعة ثابتة ومستقرة، ولا تقبل أحكامها التعديل أو التبديل، وتواكب المستجدات بقواعدها وكلياتها.

* * *

بل كانت الشريعة الإسلامية شاملة لكل الناس إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وشاملة لجميع مراحل الإنسان، من عالم الأجنة إلى دخوله عالم البرزخ بعد تمامية الدفن ومراسمه، بل إلى عالم يوم القيامة بما يتركه من أعمال تدرّ عليه من حسناتٍ أو سيئات.

وشاملة لجميع نواحي الحياة الإنسانية بوضع منهج متكامل لها.

وشاملة لجميع مقومات الإنسان من نفسٍ وعقل وبدن.

الثالث: الواقعية، تبعاً لتكوين الإنسان ودوره.

فالشريعة الإسلامية واقعية، لأنها ملائمة لنفس الإنسان وبدنه، وملائمة لكونه فرداً وجزءاً من مجتمع وأمة، وملائمة لكونه عبداً لله جل وعلا وأنه خليفة له في هذه الدنيا.

فمن واقعية التشريع الملائم للنفس أن جعل محفزات ومرغبات العمل الصالح جزءاً من فطرة النفس، كما جعل المنفرات من العمل السيىء جزءاً منها.

ومن واقعية التشريع الملائم للإنسان نفساً وبدناً أنه لم يُحرّم عليه شيئاً وهو في حاجته، ولم يُبح له شيئاً يعود عليه بالضرر الملزم.

ومن واقعية التشريع الملائم للإنسان أنه أقرّ للإنسان إعطاء حق النفس والبدن من الشهوات والملذات والراحة والاستجمام بشرط أن لا يشتمل على محرم ولا يصدّ عن ذكر الله جل وعلا.

ومن واقعية التشريع الملائم للإنسان أنه لم يأتِ بتشريع فوق طاقته، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ومن هذه الواقعية الملائمة للإنسان كان التشريع موازناً بين الدنيا والآخرة، وبين البدن والنفس، وبين الفرد والمجتمع.

ومن هذه الواقعية وُجّه الإنسان إلى الكمال بحسب قدراته وملكاته، وبحسب مناحي تطلعاته الفكرية وترقياته النفسية.

فلذا كان التشريع وسطياً بين مقومات الإنسان ودوره، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وكان التشريع كله خير وحق، فخيرتيه لدفع الإنسان نحو الأحسن له، وأحقيته لمطابقته لقدرات الإنسان وملكاته، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

الرابع: الثبات والتطور.

فالشريعة جمعت بين الثبات والتطور.

ثبات في القيم والمبادىء، وتطور في شؤون الحياة والاجتماع.

ثبات في الأهداف والغايات، وتطور في الوسائل والأساليب.

ثبات في الأصول والكليات، وتطور في الفروع والجزئيات.

وبالجملة ففي الثبات يستقر التشريع في قيمه وأهدافه وكلياته،

وفي التطور يستطيع التشريع أن يواكب التقدم الإنسان في كل مجالاته.

ومن جهة أخرى فالثبات في التشريع الإسلامي الأساسي في العبادات والمعاملات والقصاص والحدود والأخلاق والزواج والطلاق والميراث والهبة والصدقة والوقف إلى غير ذلك من مجالات العمل الإنساني الفكري والنفسي والبدني.

وهذا الثبات هو الذي يشكل الوحدة الفكرية والنفسية والسلوكية للمسلمين.

والتطور في جزئيات الأحكام والفروع منبثق عن أساسيات التشريع، وهذا لا يضر في الوحدة المتقدمة.

ومن جهة ثالثة هذا بالنسبة للتشريع النازل من الله جل وعلا، أما التشريع الواصل إلينا فهو على ثلاثة أقسام.

القسم الأول: التشريع المنصوص عليه نصاً محكماً من القرآن أو السنة، وكان مجزوم الثبوت إما بالتواتر أو بالقرائن.

القسم الثاني: التشريع المنصوص عليه نصاً ظاهراً غير محكم، أو كان نصاً محكماً غير قطعي الثبوت، أو وصل إلينا بعدة صور، فهو محل اجتهاد الفقهاء على أن المصيب له أجران، أجر الإصابة وأجر العمل، وأن المخطىء له أجر العمل فقط، والآراء الآتية من إعمال ملكة الاجتهاد في هذا القسم لا يغيّر شيئاً في أساس الوحدة الفكرية أو النفسية أو السلوكية المتقدمة.

والأمثلة على هذا القسم كثيرة نكتفي منها بقوله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فقرئت الراء من قوله تعالى: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ بالتخفيف، بمعنى طهورها، وهو النقاء من دم الحيض، وقرئت بالتشديد بمعنى الاغتسال من الحيض.

القسم الثالث: هناك مواضع مستجدة لم تكن في عصر النص، ولا بدّ من معرفة حكمها أو الوظيفة العقلية أو الشرعية تجاهها، فلذا اشتملت الشريعة على قواعد تُسمى بـ(قواعد الفقه) وهي بالعشرات، بعضها منصوص وبعضها متصيد، واشتملت الشريعة على كليات يُبحث عنها في علم (أصول الفقه) تُسمى بـ(الأصول العملية) كالبراءة والاستصحاب والتخيير والاحتياط.

وبإجراء هذه القواعد الفقهية والأصول العملية ضمن التوجيه التشريع يُعرف الحكم أو الوظيفة للموضوع المستجد.

وهذا القسم هو منطقة (القواعد والأصول) على أن لا تخرج عن الأهداف التشريعية، وهذه التسمية أولى من تسميتها بـ(منطقة الفراغ التشريعي)، لأن التسمية الأصح هي التسمية التي تعبر عن الواقع أكثر من تعبير غيرها.

فالشارع حدّد في (منطقة الفراغ) أحكامها ووظائفها من خلال تشريع القواعد والكليات، فلا فراغ تشريعي في هذه المنطقة، غايته لا بدّ من إعمال ملكة الاجتهاد لمعرفة أحكامها أو وظائفها من خلال القواعد والأصول، ولذا ورد في الخبر الصادقي: (إنما علينا أن نُلقي إليكم الأصول وعليكم أن تفرّعوا) الوسائل، أبواب صفات القاضي

باب ٦، حديث ٥١، وفي الخبر الرضوي: (علينا إلقاء الأصول وعليكم التفريع) المصدر نفسه، حديث ٥٢.

ومن جهة رابعة فليس هناك إسلام قديم وإسلام جديد، بل الإسلام واحد في الماضي والحاضر والمستقبل.

وعليه فلا يقبل الإسلام التجديدَ، بمعنى هدم بعض عقائده أو بعض مفاهيمه أو بعض أحكامه.

ولا يقبل الإسلامُ التجديد، بمعنى إنشاء عقائد أو مفاهيم أو أحكام جديدة، مبنية على الظن والاستحسان وملائمة روح العصر، وملائمة التطور والحداثة والتنوير.

نعم لا يقبل الإسلام الجمودَ في مواضيع الأحكام، فلا يجوز الاقتصار على مواضيع كانت سائدة في العصور السابقة وقد تبدلت في عصورنا.

كما لا يقبل الجمود في أحكام المواضيع المستجدة، بدعوى أنها لم تكن في عصر السلف أو في زمن النص.

وبالجملة فحقيقة الإنسان ثابتة، وهي نفسه المتعلقة بالكمال، وهي بحاجة إلى عقيدة تعرفه سرَّ الوجود وتربط حياته بهذا السر، وهي بحاجة إلى العبادات للتخضع بين يدي ربه لتشبع بمعاني العبودية وتتكل على ربها وتستمد منه العون والأمل.

وهي بحاجة إلى الأخلاق والفضائل التي تزكي النفس وتقوّم السلوك، وهي بحاجة إلى أسس المعاملات والإيقاعات التي تدور عليها معاملات الناس ونظام معاشهم.

وهي بحاجة إلى رادعٍ قوي وهو مشرع في القصاص والحدود تحقيقاً للعدل الاجتماعي.

ففي هذه الثوابت لا بدّ من وجود ثوابت في الدين والشريعة، نعم المستجدات في أنماط المدنية وفي أسلوب الحياة، وفي وسائل التعاطي من علوم الحضارة فهي مما يتعلق ببيان أحكامها من منطقة (القواعد والأصول).

ومن جهة خامسة لا بد من العمل على تطبيق الإسلام بعقائده ومفاهيمه، وشعائره وعباداته ومعاملاته، وأخلاقه وقيمه، وآدابه وتعاليمه.

وإلا فالتشريعات والمفاهيم والعقائد من دون تطبيق لا تصنع أمةً ما لم يسندها تغيير فكري ونفسي وإرادي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وعليه لا بد من إيجاد الروح الإسلامية، والشخصية الإسلامية، والنفسية الإسلامية، والعقلية الإسلامية، والإرادة الموجهة نحو إنجاز الدور الاستخلافي.

لأن الإنسان ـ بنظر الإسلام ـ إيمان وعقيدة، ونسك وعبادة، وخلق وفضيلة، وشريعة ومنهج، ودعوة وجهاد، وعقل وعلم، وعمارة وإنتاج.

وفقنا الله تعالى لذلك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حرره

السيد محمد حسن ترحيني

٢٠ صفر ١٤٣٥هـ

٢٤ ك[١] ٢٠١٣م

المحتويات

المقدمة

الباب الأول

الحاجة إلى الدين

الباب الثاني

الفلسفة الإسلامية

الباب الثالث
العقيدة الإسلامية

الباب الرابع
العقيدة الإلهية

الباب الخامس
الهداية النبوية

الباب السادس
الشريعة الشاملة التامة